الرد على كتاب باتريشيا كرون :
(تجارة مكة وظهور الإسلام)

Patricia Crone:
Meccan Trade and the Rise of Islam

ترجمة ودراسة :

دكتورة . آمال محمد محمد الروبي

أستاذ مشارك في قسم التاريخ اليوناني الروماني

جامعة الملك عبدالعزيز – جدة

مراجعة :

أ. د. محمد إبراهيم بكر

رئيس هيئة الآثار المصرية السابق

أستاذ التاريخ القديم

وعميد كلية الآداب جامعة الزقازيق سابقاً

وعميد كلية السياحة والآثار

جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة :

أثار عنوان كتاب كرونِ :

Patricia Crone, Meccan Trade and the Rise of Islam Oxford ١٩٨٧.

انتباهي, لأنه يتناول فترة زمنية ترتبط بمادة : (تاريخ العرب قبل الإسلام) ,وهي مادة أقوم بتدريسها لطالبات قسم التاريخ "بجامعة الملك عبد العزيز بجدة".

واللافت للنظر أنه عندما تناولت الكتاب ,وبدأت صفحاته تتوالى أمامي هالني ما قرأته بين السطور, واضحا أحيانا ,وأحيانا أخرى مختفيا وراء قناع من البحث التاريخي الزائف,الذي لا تغيب أغراضه عن الباحث المدقق ؛ لذلك كان لابد من الرد على الكتاب حتى لا يقع من يطلع عليه في الأخطاء الكبيرة التي قدمت له تحت عباءة البحث التاريخي.

في هذا الكتاب تطرح المستشرقة "كرون Crone" أسئلة لا تخلو من ذكاء ,لكنها تجيب عنها بأجوبة مضللة ,فقد عمدت في معظم الأحيان إلى التنسيق المنطقي والموثق لإثبات عكس ما هو ثابت . والمعروف أن أسهل طريقة لتمرير أي قضية غير منطقية ليبتلعها

القارئ أن تبدأ بافتراض شكل منطقي له ومقنع من الخارج,وجوهره في الحقيقة باطل . ومن هذا الافتراض الباطل تنطلق إلى مجموعة من النتائج لتجعل القضية التي تقدمها منطقية ومقبولة ,والذكاء هو سرعة تمرير الافتراض الباطل بمهارة وخِفة ,بحيث لا ينتبه القارئ إلى زيفه . ومن ثمَّ يتم استدراجه بسهولة لتلقي النتائج . وهو أسلوب يتبعه بعض الباحثين غير الموضوعيين في الدراسات التاريخية عندما يصرون سلفا على فكرة ,ثم يبحثون لها عن أدلة تصاغ في سياق يبدو مقنعا.

لقد قامت كرون بتغيير واستبدال لبعض الكلمات التي وردت في النصوص التاريخية ,وقدمت نصوصا أخرى مبتورة , وأغفلت متعمدة ذكر المصادر التي تناقض آراءها حتى لا تهدم فكرتها وتقوضها من الأساس .كما قامت بطرح نتائج دون ذكر المصادر التي اعتمدت عليها ,واتهمت بعض المستشرقين الذين خالفوا آراءها بأنهم وثقوا بالمصادر الإسلامية وأخذوها على علتها . في سعي دءوب منها يهدف للتشكيك في "سورة قريش" وتاريخ "معركة بدر" التي حددها القرآن الكريم بشهر رمضان وذكرتها المصادر الإسلامية ,وغيرت في المواقع التاريخية الثابتة , فحركت موقع مكة المكرمة من مكانها المعروف والثابت تاريخيا وجغرافيا,ووضعت البيت الحرام في شمال الجزيرة العربية ,بل فوق كل هذا ادعت أن

ظهور الرسول (ﷺ) كان في" بلقا Balqa" – أقصى شمال غرب العربية – على الرغم من تأكيدها أن الأحداث التي ارتبطت به قُدر لها أن تدور في الجنوب .

وقد وقفت على مغالطتها الكثيرة محاولة – قدر الإمكان – حصر أهم القضايا التي أوردتها المؤلفة للتشكيك والتضليل ,وقمت بمناقشتها ,موردة المحاور الرئيسة في النقاط الآتية :

أولاً : رفض كرون ما هو ثابت جغرافياً وتاريخيًا, والادعاء أن مكة المكرمة لا تقع في مكانها المعروف والثابت تاريخيا ,وحركتها من مكانها على الخريطة رافضة كل إشارات الكتاب الإغريق والرومان إليها في العصور القديمة .

ثانياً : نفي كرون اتجاه الحجيج إلى مكة وبيتها الحرام قبل الإسلام ,والادعاء بأنهم كانوا يتجهون إلى الأسواق الثلاثة القريبة منها وهي: عكاظ وذو المجاز ومجنة ,وشرح مناسك الحج الجاهلي والإسلامي,وفى كليهما تغفل البداية والمنتهى: أي الطواف والتلبية ,وعمدت في معظم الأحيان إلى افتعال التنسيق المنطقي والموثوق ظاهريا لإثبات عكس الثابت ,ولم تلقِ بالا إلى المصادر العديدة التي تخالف رأيها وتهدمه من أساسه مستثمرة في ذلك جهل معظم القراء الأوربيين بمناسك الحِج .

ثالثاً: ترفض كرون الاعتراف بدور قريش في تجارة الشرق

العالمية ,والإصرار على تهميش دورها وحصره في نطاق المحلية ,هذا على الرغم من أنها اقتربت مرات عديدة من الاعتراف بتجارة قريش العالمية ,إلا أنها كانت تحجم في كل مرة عن ذلك الاعتراف بجُمل غامضة دون تفسير لهذا الإحجام ؛إلا بكونه أمر بيت له في ليل .كما أنها رفضت رفضا تاما تفسير شروح المفسرين والشُراح لسورة قريش والتي يظهر منها دولية تجارة قريش قبل الإسلام.

رابعاً : شككت كرون في رسالة خاتم الأنبياء سيدنا محمد(ﷺ)بالادعاء بأن دعوته ظهرت في شمال الحجاز وليس في مكة المكرمة لكي يتسنى لها هدم أحد أهم أسس الدعوة الإسلامية ,وهي انطلاقها في البداية من مكة المكرمة ,مستندة على ما ادعته من أن قريشا سكنت بشمال الحجاز ,وليس في مكة كما هو معروف ومؤكد .

خامساً : الخلط في تاريخ معركة بدر الكبرى فقد تركت جانبا معركة بدر الأولى تماما, واستبدلت معركة بدر الثانية المعروفة باسم "غارة نخلة "ووضعتها مكان معركة "بدر الكبرى"(الثالثة) ,لكي يتوافق ما قامت به مع التاريخ المذكور في قصاصة بردية مكتوبة باللغة العربية,ضاعت أغلب حروف سطورها, اكتُشفت في فلسطين عام ١٩٥٦م. وهذا الخلط الذي قامت به ليس عن غفلة وإنما محاولة

منها للتشكيك في صحة ما جاء في القرآن الكريم والذي تقر رغما عنها في أحد المواضع أنه لم يحدث فيه تغيير؛ ولكن رغم ذلك ثبت من مناقشتها عكس ما رأت .

سادساً : التفسيرات الخاطئة التي قدمتها كرون في تفسير سبب نجاح الدعوة الإسلامية في يثرب ,ومعالجتها للمشكلة الروحية (ويقصد بها ما يتعلق بأمور الدين والعقيدة) في بلاد العرب قبل الإسلام ,وادعاؤها بعدم قيام قريش بدور مهم في خدمة الكعبة قبل الإسلام ,وأن مكة لم يتم فتحها سلما ,وربط نجاح الدولة الإسلامية بالغزو والقومية العربية ,وهي الفكرة التي لم يكن لها وجود في القرن السابع الميلادي عند ظهور الإسلام .

سابعاً : الأخطاء التي وردت في الإشارة إلى الآيات القرآنية الكريمة ؛والملاحظ أنها لم تقع في أي خطأ عند نقل النصوص العربية التي تجيد لغتها إجادة مميزة ,وإنما جاءت أخطاؤها فقط عند الإشارة إلى كثير من آيات القرآن الكريم كما سنوضح للقارئ, ما يدل على أهداف معينة ,لدى مؤرخة لم يعرف عنها الغفلة ,إضافة إلى استخدام أسلوب السخرية والتهكم كوسيلة لإقناع القارئ,إذ وصفت العرب بصفات غير مقبولة ,ولم تكتف بذلك بل زاد تجاوزها عندما تطاولت على الرسول (ﷺ)، ومن خلال هذا

الأسلوب نفست كرون عن مشاعرها التي كثيرا ما أخفتها وراء ستار كثيف ,وأظهرت مدى تأثير عواطفها الشخصية على عملها , ما أدى إلى إفساد تحليلها التاريخي .

وسوف أتناول الرد على كل ما طرحته كرون في المحاور السابقة بالتفصيل الشامل لكل محور على حدة ,مع توثيق المصادر التي اعتمدت عليها وهى مرفقة في نهاية الدراسة .

إن الهدف من الجهد المضني الذي استغرقه العمل في الرد على ما ورد في الكتاب يرجع إلى أكثر من سبب :

أولاً : إن الشريحة الرئيسة التي أردت مخاطبتها,هي الشريحة غير العربية التي لا تدين بالإسلام, وبالتالي فمعلوماتها عن الإسلام وعن خاتم الأنبياء (ﷺ) محدودة, وقد تضم أيضا مجموعة لا تعرف سوى معلومات مشوشة عنهما, وليس القارئ المسلم بأي حال ,لأنه ليس لديه شك حول الموضوعات التي طرحتها المستشرقة,إضافة إلى الرد على أعداء الإسلام الذين هللوا محتفين بهذه الأكاذيب المغلفة بثوب البحث العلمي الذي قدم لهم, وتحولت صفحات الإنترنت إلى ساحة يشيدون فيها بهذا العمل الذي يبدو أنه توافق مع غاياتهم .وأود أن أوضح للقارئ أنني بعد أن نشرت ردودي على ما كتبته كرون ,قامت برفع جميع بياناتها الشخصية من على الإنترنت ولم تترك سوى البريد الإلكتروني فقط ,ويبدو أنها لم تكن تظن بأن

الترجمة– التي حصلت منها على الإذن الرسمي للقيام بها – سوف يصاحبها دراسة علمية متأنية وتعليق دقيق مفصل , ليس فحسب على كل فكرة بل وعلى كل كلمة وردت في الكتاب .

ثانياً : أن الكتاب يُعد من المراجع الرئيسة التي يرجع إليها الطلبة الذين يدرسون موضوع تاريخ العرب قبل الإسلام في الجامعات الأوروبية والأمريكية في كليات الآداب بمختلف مسمياتها لديهم إضافة إلى القارئ المثقف,لذلك كان حرصي شديدا على ترجمة ردي عليها باللغة الإنجليزية حتى تتضح لهم الأخطاء المقصودة التي وقعت فيها , وكان الهدف منها النيل من الإسلام تحت مظلة موضوع تجارة مكة .

ثالثاً : إن ردود القراء من المسلمين الذين اطلعوا على كتابها , وهالهم ما فيه من قلب للحقائق, وصلت إلى حد الدهاء ونسج الخيال للوصول إلى نتائج مزيفة , وقاموا بالرد عليها ,يحركهم في ذلك حماسهم للدفاع عن الدين الإسلامي الحنيف ولكن دون توثيق من المصادر ,الأمر الذي دفعني إلى التفكير في معالجته بأسلوب علمي موثق بالحجة والبينة وفقا لمنهج الدراسات التاريخية العلمية ,بهدف كشف نوايا المستشرقة أمام الجميع سواء قارئ العربية أو الإنجليزية .

رابعاً : تحذير القارئ العربي والذي يقع بعض منهم أحيانا في دائرة الانبهار بالفكر الغربي ,بل والانزلاق والوقوع في شراكه , ثم يتحول دون وعي إلى ترديد ما يقدم . وليس معنى هذا أن لا نقرأ للمؤرخين والمثقفين الغربيين وأن لا ننهل من المدارس التاريخية المختلفة ,بل إنه أمر لا بد منه ,ولكن شريطة أن يكون لدينا الحس التاريخي الناقد والقدرة على تمييز حقائق التاريخ بصورة دقيقة عميقة موثقة ,في عالم اليوم الذي يهدف فيه بعض المغرضين إلى طمس هويتنا الإسلامية تحت مظلة العولمة والذوبان في بوتقة الحضارة المادية الجارفة ,ناهيك عن عملية الاستنزاف العقلي والتحديث المظهري .ومن ثم ينبغي أن نفتح عيوننا جيدا ؛ولا نلغي عقولنا ؛لنرى ما يقوم به الذين يحاولون العبث بتاريخنا ,وحتى لا تفقدنا الأضواء المبهرة حول اسم مؤرخ ,أو مؤسسة ,أو جامعة ,القدرة على الرؤية الواضحة ,إن مسئوليتنا – نحن المؤرخين – أن نحافظ على تاريخنا ,وأن نقوم بتنقيته من الشوائب العالقة به ؛فهو يمثل مع لغتنا أهم ركائز هويتنا , لقد اشتدت علينا العواصف ,وتكاثفت السحب ,وبدأت الأعاصير والأنواء تهب علينا من كل جانب ,والله المستعان .

وبالإضافة إلى ما تقدم, وقعت الكاتبة في أخطاء عديدة لغوية ومنهجية يمكن حصرها في الآتي :

- على الرغم من إجادة كرون للغة العربية إلا أنها عند قيامها بنقل الكلمات العربية إلى الحروف اللاتينية تنقلها بطريقة متقطعة ,بحيث تداخل حروف كلمة مع حروف كلمة أخرى, ما يترتب عليه تغيير في بناء الكلمة .
- الخلط بين حرفي : (hوb) بحيث يحدث تغيير كبير في المبنى والمعنى خصوصا لمن لا يعرف العربية .

تقزيم المصادر الإسلامية والإشارة إليها باصطلاح آداب أو أدب أو مصادر الأدب الثانوي ,على الرغم من كونها مصادر تاريخية من الدرجة الأولى . وأظهرت كرون شغفا عارماً وتلذذاً واضحا عند وجود تناقض في بعض الروايات ,وهي تقوم بنقد المصادر ,ولكنها تحجم متعمدة عن أن تخطو الخطوة التالية .ومن أولويات البحث التاريخي أنه في حالة وجود تناقض في الروايات أو النصوص,فهذا لا يعني أن جميع الروايات غير صحيحة ولا يوثق بها جملة ,لأنه يجب على الباحث في الخطوة التالية أن يحلل مختلف الروايات والنصوص لينتهي إلى القول بأن هذا النص مقبول,والثاني مرفوض, والثالث بعيد الاحتمال , والرابع مرجح ,وذلك مضمون

الصحة موثوق به ,فإذا وجد تناقضا بين روايتين فهل يُعد هذا حجة عليهما معا ؟إذا حدث هذا ففي إمكان أي مؤرخ له هدف ما أن يلغي أعظم التواريخ ,وفي الوقت نفسه فالمؤرخ يخطئ حين يعطي المصادر ثقته الكاملة دون تدقيق .وقد أخطأت كرون متعمدة في الإحجام عن قبول النصوص المتناقضة دون تحليلها وذلك حتى يتسنى لها فيما بعد إصدار أي رأي أو نفي أي قول دون كثير عناء .لقد أظهرت دأبا على التدقيق في النصوص ,لكنها حرفتها جميعها إلى التشكيك في المصادر الإسلامية.

خامساً : أود أن ننبه أنفسنا إلى ضرورة الاطلاع على كل ما كتب عن الإسلام والمسلمين بغير أيديهم ,والوقوف عليه بوعي وتمحيص لننقي ما قد يكون وقع فيه من شوائب تسئ إلى ديننا وتاريخنا .لقد حفظ الله الإسلام ؛ وإن من وسائل حفظه أن يقيض الله له من يفطـــن إلى مكائد أعدائه ,فالمسلمون ليسوا في غفلة من أمرهم – كما يعتقد البعض – ,وأنهم يكتفون دائما بتلقي الضربات دون الرد عليها والدفاع عن دينهم الذي هو أغلى ما يملكون .

سادساً : لقد سبق وكتبت لأكثر من جهة رسمية في أنحاء متفرقة من العالم العربي لكي تتولى أي منها مهمة ترجمة الردود التي قمت بها على ما ورد في كتاب كرون من اللغة العربية إلى اللغة

الإنجليزيـة , وختاما أتقـدم بخالص شكري وتقـديري إلى القـائمين على الترجمة وكل من ساهم في إخراج هذا العمل ,وفق الله الجميـع لخدمة الإسلام والمسلمين .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

آمال محمد الروبي

جامعة الملك عبد العزيز

جدة في: ١٤٢٨/١١/٢٥هـ

مناقشة المحاور

المحور الأول

اسم مكة وموقعها الجغرافي

تقول كرون : [من الواضح أنه لو كان المكيون يقومون بدور الوساطة التجارية على ذلك الطريـــــق التجاري الطويل,والذي جاء وصفه في المصادر الأدبية الثانوية ,فنحن نتساءل لماذا لم يرد لهم ذكر في كتابات عملائهم ؟لقد كتب الإغريق والرومـــان بإسهاب عـن عـرب الجنـوب الـذين قـاموا بمـدهم بـالطيوب في العـصر السابق,وقدموا لنا وصفا عن مدنهم ,وقبائلهم ونظمهم السياسية ,وقوافلهم التجاريـة,كمـا كتبـوا عـن الحبـشة وأدولـيس في القـرن السادس,إضافة إلى أن الأوضاع السياسية والدينية والشئون العربية ,جـذبت انتبـاههم في القـرن الـسادس,فلمـاذا إذن لم يـرد أي ذكـر لقـريش ونـشاطهم التجـاري عنـد الإغريـق واللاآتـين والـسوريين , والآراميين والأقباط أو الكتابات التي تم تأليفها خارج بلاد العرب قبل الفتوحات؟

لاشك في أن صمت هذه المصادر يثير الانتباه ,ولـه أيضا مغزاه. أما المحاولات التي قدمها بعضهم لعلاج هذا الصمت ,فإنها أضافت

مزيدا من اللبس على هذا الموضوع, فقد رأى بعضهم أنه جاء ذكر لقريش ,بطريقة غير مباشرة فيما كتبه بليني(Pliny) عند حديثه عن إقليم ذا بني جوريس (Dabanegoris region), وفيما ذكره بطلميوس عن مكة تحت اسم مكورابا (Macoraba),إضافة إلى ما ذكره عن ميناء موكورباي (portus Mochorbae) الذي يطابق بجدة ,وفيما ذكره أميانوس ماركيللينوس Ammianus (Marcellenius) عن مكة تحت اسم المدينة المقدسة (Hierapolis)",والواقع ينبغي غض النظر تماما عن كل هذه الاقتراحات التي سبق تقديمها ؛ لأن إقليم ذو بني جوريس لا يمكن أن تتطابق مع ذو بني قريش(Dhū Banī Qurysh) التي تعني المنطقة الخاصة ببني قريشاً كما يعتقد يسمان (Wissmann),ويرجع السبب في ذلك إلى أن المرء يتوقع وجود انعكاس للغة هنا ,ولكن البناء اللغوي بالطريقة السابقة يرجع إلى العربية الجنوبية , أكثر منه إلى اللغة العربية , هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن عبارة بنو قريش(Banu Quraysh) تعبير غير صحيح ؛ لأن قريشاً ليست اسمًا يدل على السلف , إن قريشا عبارة عن مجموعة منحدرة من بني فهر. ويأتي فوق كل ما تقدم ,أن بليني قام بوضع الإقليم المذكور في العربية

الجنوبيـــة ,

وبالتحديد بين عمان وحضرموت ,وينطبـــق الأمر نفسه على منطقة ميناء موكورباي (portus Mochorbae) التي ذُكرت في الفقرة نفسها من النص . إن هذه المناطق تُصنف في العربية الجنوبية ,ويمكن أن يذكر بعض المتخصصين خطأ أنها كانت تدخل في إطار سيطرة مكة ؛ نظرا لما للأخيرة من تأثير سحري على بعض عقول المتخصصين ؛لذلك فإن فكرة مطابقة مكة مكورابا التي ذكرها بطلميوس وجدت تأييدا وقبولا لدى بعضهم ,وهذه المضاهاة قامت على أساس أن الأسماء الغامضة متشابهة ,وأن الأماكن الغامضة صحيحة ؛لذلك فإن كلمة ماكورابا يشتق منها مكة رَبّة-Makka (Rabba)أي مكة العظيمة ,لكن هذه البنية اللغوية خطأ على طـــول الطريق , ففيها تم استبدال الاسم بكلمة ماكراب أو ميكراب (Makrab or Mikrāb) . وهى تعني المعبد ,كما أن الجذر اللغوي كرب (Krb) ليس له معنى القداسة في اللغة العربية ,على عكس الحال مع اللغة العربية الجنوبية . وهكذا كنا نتوقع وجود انعكاس في اللغة ولكننا لن نجده].

وتواصل المستشرقة قولها :["ومن ناحية أخرى فإن الاسم الذي يتكون من الحروف الساكنة مَك (mkk) لا يمكن أن يكـــون

مشتقا من الجذع كرب (Krb) . ويترتب على ذلك أن بطلميوس كان يشير إلى مدينة مقدسة ,ولكنها ليست مكة .لماذا إذن تمت المطابقة بين الاثنتين ؟إنها محاولة من محاولات الإنقاذ مثل محاولة مضاهاة مكراب مكة (Mikrāb Makka),التي لم تكن أفضل من المحاولة السابقة في مكة العظيمة (Makka Rabba),التي في حاجة للاستعانة بحالة المؤنث الموجودة في اللغة اليونانية ,فالحقيقة الواضحة أن اسم مكورابا ليس له ارتباط بمكة ,إضافة إلى أن المكان الذي يشير إليه بطلميوس بمكورابا ,لا يتطابق مع الاثنتين .وإذا كانت مكوراب (Macorabe) تقع في محيط يتحدث العربية ,فالاحتمال الأكبر أن يعكس اسمها الشكل العربي وهو موكارابا"(Muqarraba) بدلا من أن يشتق من كلمة" كرب"التي تعكس لغة الجنوب ,وإذا كانت تقع بين المتحدثين باللغة العربية الجنوبية, فهي لذلك لا يمكن أن تكون هي المدينة موضوع حديثنا ؛ وإذا كان قدر لبطلميوس أن يذكرها فكان يجب أن يذكرها على النحو الآتي وهو موكة (Moka),وهى مدينة في البتراء العربية .بالإضافة إلى أنه لم يرد ذكر لمكة لدى أميانوس ماركللينوس][(١)].

ويمكن تفنيد الرأي السابق والرد عليه على النحو الآتي :

---

(١) Patricia Crone,Meccan Trade And The Rise Of Islam Oxford١٩٨٧, pp.١٣٤-١٣٦.

أولاً : المعروف أنه من الخطورة بناء حقائق تاريخية على افتراض لغوي قابل لكل الاحتمالات, إلى جانب أن كرون Crone حاولت جاهدة إفراغ إشارة الكتاب اليونان والرومان الثلاثة إلى مكة من مضمونها وهم : الكاتب الموسوعي بليني في القرن الأول[١],والجغرافي بطلميوس السكندري الذي كتب في الفترة من ١٢١-١٥٠م[٢].

---

(١) بليني الكبير (٢٣/٢٤ -٧٩م) : له عدة مؤلفات منها : ترجمة لعدد من الشخصيات المهمة في المجتمع الروماني ,حروب الرومان ضد الجرمان ,فن الخطابة في ٣١جزء عن التاريخ المعاصر ,وأهم مؤلفاته : التاريخ الطبيعي " Naturalis Historia ويقع في ١٠٢ جزء . تحدث في هذه الموسوعة الكبيرة عن : الأرض, والجغرافيا,والسلالات البشرية,وعلم النفس ,وعلم الحيوان وعلوم النباتات ,وعلم الأدوية, وعلم التعدين والمعادن الطبيعية ,وتضم الموسوعة الإشارة إلى حوالي ٢٠٠٠كتاب ,منها مائة كتاب لكبار الكتاب والباحثين من الإغريق والرومان . راجع : الروبي ,آمال محمد,"الجزيرة العربية في كتابات الإغريق والرومان وظهور مكة مدينة مقدسة في كتاباتهم ",مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ,العدد السادس١٤٢٦, /٢٠٠٥م ,ص ٨٢ وما يلها ٩٨-٩٩.

s.v.Pliny The Oxford Classical Dictionary ,Oxford ١٩٥٧, the elder,ppv٠٤ff.

(٢) كلوديوس بطلميوس السكندري(Claudius Ptolemaeus),ولد في مدينة بطلمية في مصر العليا,ينتمي إلى علماء جامعة الإسكندرية ,كتب في الفترة من عام ١٥١/١٢١م.وله عدة مؤلفات علمية جمع فيها بين دراسة الرياضيات والفلك والطبيعة والجغرافيا من أهمها : كتاب" الرياضة الجامعΜαθηματική σϋνΤταξίς Mathematike Suntaxis ,الذي عرف باسم" الجامع الكبير",وكتاب آخر عن "الزوايا العمودية المتقاطعة "ومؤلف ثالث عن "المجسات=

والمـؤرخ أميـانوس مـاركللينوس في القـرن الرابـع م[1], وجـاء

=الجغرافية Stereographic" وخامس عن" العلوم البصرية Optics ",ويُعد بمثابة المحاولة الأولى لنظرية انكسار الأشعة .أما أشهر مؤلفاته على الإطلاق فهو كتاب" الجغرافيا- Γεωγραφική ΎΦηγησις Geography , ويقع في ثمانية أجزاء ,إضافة إلى أطلس للخرائط منها خريطة للعالم . لم يعتمد بطلميوس في قياساته الجغرافية على علوم الفلك فحسب ,بل اعتمد معها على تقارير الرحالة التي كانت تصل إلى الإسكندرية .وعند رسمه لخريطة العالم (التي لم تصلنا في صورتها الأصلية) , ترك فراغا في الجانب الغربي منها ؛ لاعتقاده بوجود قارات أخرى فيها غير أوروبا وآسيا وأفريقيا التي كان يعرفها عالمه في ذلك الحين .وتحتل الجزيرة العربية جزءا من الخريطتين الرابعة والسابعة لآسيا .وأورد بطلميوس سلسلة من القوائم الطويلة لأسماء مناطق القبائل ,وأقسام جغرافية على طول السواحل من رأس البحر الأحمر وحتى الخليج العربي ,مع ذكر أسماء المدن والقرى والخلجان ,وسرد عددا كبيرا يفوق المائة لأسماء المدن والقرى ,ورد كثير منها لأول مرة في مصادر العالم القديم .ويُعد هذا العمل من أدق كتب الجغرافيا في العالم القديم . راجع الروبي (آمال محمد),"الجزيرة العربية في كتابات الإغريق",ص ١٠٠,٨٦-١٠١ ؛ Oxford. Class.Dict.,p.٧٤٦. ؛الروبي ,آمال محمد,مصر في عصر الرومان ,دراسة سياسية — اقتصادية — اجتماعية في ضوء الوثائق البردية ٣٠ق م -٢٨٤ م , جدة ١٤٠٤/١٩٨٤م,ص ٢٧١-٢٧٢ .

(١) ولد أميانوس ماركللينوس لأسرة ثرية في أنطيوخ في سوريا حوالي عام ٣٣٠م. ويُعد أخر كبار المؤرخين الرومان .كتب عمله التاريخي Rerum Gestarum باللغة اللاتينية غطى فيه الفترة من عام ٧٨-٣٧٨م..فُقدت الكتب الثلاثة عشر الأولى منه .تضم الكتب من ١٤ -٣١ رواية متصلة للأحداث بين عام ٣٥٣/٣٧٨م ,يبدو أنه انتهى من مؤلفه حوالي عام ٣٩١ .تميز بنظر ثاقب ,ورأي حيادي غير مُسبق لتقييم الأحداث ,وكان على قدر كبير من الثقافة ,تتضح من سعة اطلاعه على المؤلفات اللاتينية في عصره ,التي كثيرا ما استعار مقاطع منها . راجع الروبي ,آمال=

اعتراض كرون على بليني (Pliny) ؛ لأن قريشا في رأيها ليست اسما يدل على السلف , وأنهم مجموعة منحدرة من بني فهر على الرغم من أن الأمر عكس ذلك لأن قريشا اسمٌ يدل على المنحدرين من بني فهر, والأمر المتفق عليه بين المؤرخين أن قبيلة كنانة التي خرج منها قصي بن كلاب هي أصل قريش ,وفيصل القول هو ما ذكره الرسول (ﷺ) عن نفسه إذ قال : نحن بنو النضر بن كنانة[١],وكان (ﷺ) لا يتجاوز عدنان إذا انتسب[٢]. وعلى الرغم من اختلاف المؤرخين في سلسلة النسب في عدنان إلا أنهم أجمعوا على أنه ينتهي عند إسماعيل –عليه السلام–,أي أن قريشاً كان لها جذورها في مكة منذ ذلك العهد البعيد . ولا نستطيع في ضوء المصادر التي لدينا تحديد متى حَمل هذا الفرع من كنانة اسم قريش ,وهل كان اسما لشخص أو صفة اشتهر بها أحد رجالهم ,وإن كنت

=محمد,"الجزيرة العربية في كتابات الإغريق",ص٨٩-٩٠, ١٠٢ ؛ Oxford. Class.Dict. p.٤٣.

(١) ابن سعد ,محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري(ت٢٣٠ هجرية/٨٤٤م) ,الطبقات الكبرى ,تحقيق محمد عطا ,ج١,بيروت : ١٤١٠/١٩٩٠,ص٢٠ /٢١ ؛ابن كثير ,أبو الفدا عماد الدين إسماعيل (ت٧٧٤هجرية/١٣٧٢ م),البداية والنهاية ,ج٢بيروت ١٤١١/ ١٩٩٠, ص٢٠٠-٢٠١ ؛راجع أيضا : ابن خلدون ,أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد (ت٨٠٨ هجرية) ,العبر وديوان المبتدأ والخبر , عمان – الرياض : بدون تاريخ,ص٤٧١.

(٢) ابن سعد, الطبقات الكبرى , ,ج١,ص٤٧.

أميل إلى الرأي القائل بأنه لقب اشتق من "التَقرُّش "أي العمل في ميدان التجارة والتكسب بدلا من الإغارة على القبائل ونهبها(١).

بدأت أهمية قريش تظهر في ميدان التجارة منذ القرن الأول — أو الثالث-الميلادي ,ويعزز هذا القول ظهورهم في أحد النقوش العربية الجنوبية التي ترجع إلى عهد الملك الحضرمي (Chatramotitae) العز بن العز يلط الذي حكم إما في القرن الأول أو الثالث الميلادي . وأشار النص إلى استقبال الملك عند تتويجه في حصن أنود بمناسبة توليه العرش وفوداً من قرشتن(Qrashtn),وكان معهم ممثلون من تدمر وكزد وكلدانيين (Chaldaens) والهند ,ويبدو من جنسيات الوفود المشاركة فيه أن هذا اللقاء كان له علاقة بالتجارة ,للدور النشط الذي لعبته

---

(١) ابن هشام ,أبو محمد عبد الملك المعافري (,ت٢١٣ هجرية),السيرة النبوية ,تحقيق مصطفى السقا , وعبد الحفيظ شلبي ,ج١ ,بيروت : بدون تاريخ,ص٩٣ ؛ الطبري ,أبو جعفر محمد بن جرير(ت٣١٠ هجرية/٩٢٣ م),تاريخ الرسل والملوك ,تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم, القسم الأول يضم : الجزء الأول والثاني , بيروت : بدون تاريخ ,ج ١ ,ص٦٤ ؛ وعن الآراء المختلفة التي ذكرت في تفسير لقب قريش ,راجع : سلامة,عواطف أديب ,قريش قبل الإسلام ,دورها السياسي والاقتصادي والديني,الرياض ١٤١٤/١٩٩٤م ,ص ٣٨-٤١ ؛ شاهبهاي,جيهان عبد الرحمن ,دور مكة المكرمة = = في الحياة الاقتصادية قبل الإسلام ,دراسة لما بين القرنين السادس والسابع الميلاديين ,رسالة ماجستير غير منشورة ,جدة : جامعة الملك عبد العزيز ١٤٢٠/٢٠٠٠,ص٢٠-٢٢ ؛

حضرموت في تجارة البخور العربية في العصور القديمة , بوصفها من أهم مصادر إنتاج أفضل أنواعه[١].

ثانياً : لا يوجد في المصادر الأثرية أو كتابات الكتاب الإغريق والرومان ما يشير من قريب أو بعيد إلى من يطلق عليهم اسم ذي بني جوريس في العربية الجنوبية ,أو وجـــود ميناء يسمى ميناء موكورباي (portus Mochorbae) يقع في هذه المنطقة ,أو في منطقة تسمى مكورابا (Macoraba)[٢], تقع في أرضهم .

ثالثاً : إن القول بأن البناء اللغوي الشمالي كان يجب أن يكون على الشكل الآتي ذو بني قريش (Dhu Bani Guraysh)[٣], وليس كما ذكره بليني دا بني جوريس (Dabanegoris). إن الرد عليها لا يحتاج إلى كبير عناء ؛ لأن الفارق بين الشكلين- كما يلاحظ - هامشي إلى أبعد الحدود ,ويسهل تفسيره بناء على وسائل

---

(١) كان الوفد القرشي يمثله أربع عشرة امرأة منهن : خديجة ,أسماء ,هند ,وأخريات ؛ بينما كان يمثل كل وفد من الوفود الأخرى اثنين فقط . عن النقش والمناقشات التي دارت حول تاريخه راجع :

Yamme(A.),ed.And tra.The: Al-Uqla Texs(Documentation Sud-Arabe) Washington D.C.١٩٦٣,pp.٣٨-٤٤.

ومهران ,محمد بيومي,دراسات في تاريخ العرب القديم الرياض: ١٣٩٧-١٩٧٧,ص ٤٠٩ ؛ سلامة , المرجع السابق , ص٤٠ .

(٢) Pliny, Natural History, vi .٧:٣٢.

(٣) Crone, op. cit,p.١٣٥.

اتصال العصر في القرن الأول الميلادي من جهة ,ومن جهة أخرى بناء على الاختلاف الذي يحدث عندما يتم نقل حروف كتابة الأسماء من الحروف العربية إلى الحروف اللاتينية .

رابعاً : أما فيما يتعلق بمدينة موكا (Moka),فالواقع أن هذه المدينة موجودة في البتراء في دولة الأنباط العربية أقصى شمال غرب الجزيرة العربية كما تذكر , ولكنها مدينة داخلية ولا يوجد لها موانئ,وكان الكاتب بليني يعرف معلومات كثيرة عنها استقاها مما كتبه الجغرافي استرابون (Strabon) المعاصر له والذي دونها في جغرافيته (Geography),وكان قد سبق وقام بزيارتها ,وأقام في عاصمتها البتراء (Petra) أثناء إعداد الرومان لحملتهم على اليمن عام ٢٦/٢٧ ق.م.بعد ثلاث سنوات من قضائهم على كليوباترا آخر سلالة الأسرة البطلمية المقدونية التي كانت تحكم مصر (عام ٣٢٣ - ٣٠ ق.م). كما قد لا يستبعد أن قبائل الأنباط التي هاجرت إلى هذا المكان الواقع على رأس البحر الأحمر واستقرت في هذه المنطقة في وقت ما قبل القرن الرابع ق.م. كانت تنتمي أصلا إلى الحجاز, وانخرطوا بالعمل في نقل البضائع العربية والشرقيـة إلى مواني غزة ورينوكلورا (العريش) على البحر المتوسط, ومن المحتمل أنهم قاموا بإطلاق اسم موكا على هذه البلدة الواقعة في أراضيهم

نسبة إلى مكة المكرمة وتيمنا بها ,وهي العادة التي درجت عليها بعض القبائل العربية في إطلاق اسم المنطقة التي قدموا منها على مراكزهم التجارية , على طول الطريق التجاري الذي كان يمتد من أقصى جنوب غرب الجزيرة العربية إلى أقصى شمالها الغربي , مثل: مركز "معين",ومركز "سبأ" على مراكزهم التجارية في شمال الجزيرة العربية ؛ وقام الإغريق وسكان فينيقيا بالشئ نفسه عند تأسيس مراكز تجارية لهم في دائرة البحر المتوسط منذ القرن التاسع قبل الميلاد .

خامساً : إن القول"بأن بليني وضع ميناء إقليم ذا بني جوريس في العربية الجنوبية, وبالتحديد في منطقة بين عمان وحضرموت , قول لا يستند على أي أساس من الصحة ؛ فالنص بدأه بليني بالحديث عن الخليج العربي بقوله : " وسوف نقوم الآن بوصف الساحل من "خاراكس"(Charax) وما يليه من جرها (Gerrha) إلى عمان والشواطئ الأخرى على الخليج الفارسي ",والتي وصلها في الفصل السادس فقرة ١٤٩,ثم وصل إلى العربية الجنوبية ببخورها الحضرمي والسبأي ,وقبل أن يتحدث عن المنطقة الجنوبية الغربية لفت انتباهه بنو جوريس وميناء موكورباي (portus Mochorbae) القريب منهم ,وهو في أغلب الظن ميناء الشعيبة القريب من ميناء

جدة الحالي ؛لذلك تحدث عنهم في الفقرة رقم ١٥٠ ؛ما يعني أن كرون Crone: هي صاحبة الرأي القائل بأن ميناء موكورباي تقع في منطقة بين عمان وحضرموت ,ولكنها أوحت بغير ذلك ونسبته إلى بليني ,إضافة إلى ما تقدم فلم يسمع أحد بميناء بهذا الاسم في الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية من قبل .

سادساً : إن ترديد القول بأن الأسماء الغامضة متشابهة ,وأن الأماكن الغامضة صحيحة هو قول غير علمي ,لأن التشابه لا بد من أن يستند على أسس علمية.

سابعاً : الادعاء بأن "مكورابا" اسم مشتق من مكة رابا (Makka – Rabba) بمعنى مكة العظيمة غير صحيح ,وصحة الترجمة هي "مكةالرب"أو "مكة الله" ؛لأن الجذر " مَكmkk " الذي يتكون من حروف ساكنة تعني "البيت"في اللغة البابلية , و"رابة " بمعنى "الرب" أو "الإله "في لغة عرب الجنوب ,أي "بيت الله",أي أنها تركيب المضاف والمضاف إليه وليست في صورة اشتقاق لغوي.

ثامناً : إن كثيرا من أسماء البلدان والمدن القديمة لا تعكس لغة قومها , فاسم"مصر"– مثلاً – هو اسم سامي الأصل يعني "الحد الفاصل بين أرضين ". والاسم الذي يشير إليها في اللغات الأوروبية مشتق من الكلمة اليونانية أيجوبتوس (Aeguptus) بمعنى "الأرض

السوداء".أي الأرض الخصبة[١]. فإذا كان اسم مصر يرجع إلى أصل ساميّ في اللغة العربية ,وأصل إغريقي في اللغات الأوربية الحديثة , فهل معنى ذلك أن المصريين القدماء كانوا يتحدثون اللغة السامية أو إحدى مشتقاتها ؟ وبالمثل هل كانوا يتحدثون اللغة الإغريقية في العصر الفرعوني وقبل أن يبدأ الإغريق أول صفحة في تاريخهم ؟

ومن نفس المنطلق كيف يمكن أن يُفَسَّر اسم مدينة طيبة (Thebes) في غرب بلاد اليونان في العصور القديمة ؟هل قامت مصر بتأسيسها وأطلقت عليها اسم "طيبة "– الأقصر حاليا – عاصمة مصر في عصر الدولة الحديثة في القرن١٥ ق.م. ولذلك فإن من الصعب إيجاد تفسير دقيق لأسماء الأماكن في العصور القديمة ,

---

(١)ظهر اسم مصر في القرن الرابع عشر قبل الميلاد في وثائق "تل العمارنة",عندما كتب(ربعدي)أمير الجبيل إلى فرعون مصر أنه قد يضطر إزاء تهديد جيرانه إلى أن يرسل أهله إلى (ماتو مصري) أي إلى أرض مصر .وورد اسم مشرى ومصرى في لوحة ميتانية ؛واسم مصر في نص من رأس الشمرا ,واسم (مصرم) في نص فينيقي يرجع إلى أوائل الألف الأولى ق.م. وعرف الأشوريون مصر باسم (مصرو,مصر), والآراميوم باسم (مصرين),وذكرتها التوراة باسم (مصر) و(مصرايم),وقصدت بها البلد حينا ,وأهلها حينا آخر ؛وورد في القرآن الكريم الاسم بلفظه الصحيح (مصر) في السور التالية :سورة البقرة (٦١),سورة يونس ٨٧,سورة يوسف (٢١,٩٩,٢١).لمزيد من التفصيلات راجع : مهران,محمد بيومي,مصر والشرق الأدنى القديم ,الإسكندرية,ج١, ١٤٠٩–١٩٨٨,ص ٢١–٢٤ ؛ صالح ,عبد العزيز,حضارة مصر القديمة وآثارها ,ج١,القاهرة ١٩٦٢,ص٢–٦ .

أو إلحاقها بلغة أو جنس معين[١] .

إذا كانت مكورابا مشتقة من لغة عرب الجنوب التي تعنى "مدينة الله "،فهو أمر لا ينزع عنها حقيقة انطباقها على مكة المكرمة، بل يدعمه بشدة ،خصوصا إذا وضعنا في نصب أعيننا أن أول من سكنها مع السيدة هاجر أم إسماعيل –عليه السلام –،كانوا قوما من قبيلة "جُرهم" الجنوبية الذين استقروا بقوافلهم التجارية إلى جوارها بعد ظهور ماء عين زمزم فيها ،وتزوج إسماعيل – عليه السلام– منهم ، ومن ثم انتشر اسمها بيت الله "مكورابا "مع قوافلهم التجارية التي كانت تتجول في أنحاء الجزيرة العربية.

لقد ذكر القرآن الكريم الكعبة المشرفة في عهد إبراهيم – عليه السلام– باسم "البيت"[٢]،ومكة في اللغة البابلية تعني البيت كما سبق وذكرنا ،والمعروف أن إبراهيم الخليل – عليه السلام – هاجر من جنوب العراق ،وهذا يدعم اشتقاق اسم مكة من كلمة بيت البابلية .ويحدد القرآن الكريم اسمها تحديدا قاطعا بقول المولى عز

---

(١) مهران ،محمد بيومي،دراسات في تاريخ العرب القديم ،الإسكندرية ٢٠٠٤،ص١٩٢ .

(٢) قال المولى عز وجل ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَـٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾سورة البقرة الآية (١٢٧)؛وقال تعالى في سورة إبراهيم ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّىٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ ٱلْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجْعَلْ أَفْـِٔدَةً مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهْوِىٓ إِلَيْهِمْ وَٱرْزُقْهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾،الآية (٣٧).

وجـــــــل : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ آل عمران , آية ٩٦ ,والمعروف أن حرف الميم يقلب باء في لغة عرب الجنوب(١).

تاسعاً : أخيرا إن ما تذكره كرون من أنه إذا كانت مكوراب (Macoraba) تقع في محيط يتحدث العربية ,فالاحتمال الأكبر أن يعكس اسمها الشكل العربي وهو موكارابا (Muqarraba),وفي هذا القول تلاعب بحروف الكلمات ؛ إذ إن الاسم الذي ذكره بطلميوس باللغة اليونانية التي يكتب بها هو مكورابا (Μάκόραβά), والاسم الذي تفضله كرون للمدينة في حالة إذا كان بطلميوس يعني مكة هو : مكورابا (Muqarraba). وإذا قمنا بنقل حروف الاسم السابق إلى الحروف اليونانية ستكون على النحو الآتي :(Μΰκάρραβά) إذ استبدلت حرف الألف (α) بحرف اليو (υ),وحرف الألف الثانية (a) بحرف الواو(o),وضاعفت حرف الراء اليوناني (ρ اليوناني=R بالحروف اللاتينية) للاسم المقترح ,بمعنى أن شكل الاسم الذي اقترحته يطابق الاسم الذي

(١) مهران ,دراسات في تاريخ العرب ,ص٣٩٢ ؛ راجع الروبي ,أمال محمد," مع باتريشيا كرون وكتابها تجارة مكة وظهور الإسلام ", مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون العدد رقم (٤),ص٥٤٣-٥٦٩ .

ذكـره بطلميـوس فيمـا عـدا الاسـتبدال الـشكلي في الحـروف . إن استبدال الحروف على طريقـة كـرون خطـير في مثـل هـذه الأبحاث التاريخية ,وهو أمر لا يخفى على القارئ المدقق ,ولكنه قد يمر عليـه في حالـة القـراءة الـسريعة,أو إذا كـان لا يعـرف اللغـة اليونانيـة وشـكل حروفها .

إن الجغرافي بطلميوس الذي كتب في الفترة من (١٢١-١٥١م) وهو من علماء جامعة الإسكندرية قد ذكر كثيرا مـن أسمـاء المنـاطق والقبائل في الجزء الغربي من الجزيـرة العربيـة,لا شـك أنـه كـان يعـني بمكورابا" مكة ",ومما يعزز ذلـك إضـافة إلى مـا سـبق وقـدمنا أنـه كـان يعـرف مكـان يثـرب , وذكرهـا باسـم لأثريبـا (Lathrippa) نتيجـة لتـوفر قـدر أكـبر مـن المعلومـات عـن الجزيـرة العربيـة في عـصره بعـد سيطرة الرومـان علـى شمـال الجزيـرة العربيـة ؛أي سـوريا ومملكـة الأنباط وفلسطين , وكان آخر جزء في حلقات إحكام دائـرتهم علـى الجانب الغربي مـن رأس البحـر الأحمـر تحويـل مملكـة الأنبـاط الـتي كانت تمتد إلى مدائن صالح في شمال غربي الجزيرة العربية إلى ولاية رومانيـة عـام ١٠٦م,والـتي تم الإعـلان الرسمـي لـضمها إلـيهم عـام ١١٣م.

عاشـراً : أصـبحت صـورة الجزيـرة العربيـة ومراكزهـا التجاريـة

أكثر وضوحا في العالم الروماني ,خاصة لدى المؤرخين الذين عاشوا فترة طويلة في المنطقة وشاركوا في أحداثها, وأعني تحديدا المؤرخ الروماني أميانوس ماركيللينوس (Ammianus Marcellenius) الذي مرت عليه كرون Crone: بسرعة ولم تناقشه فيما ذكر . لقد وضع أميانوس وهو آخر المؤرخين الرومان الكبار, كتابا في التاريخ باللغة اللاتينية , قدم في الجزء رقم ٢٣ منه قائمة لسبع مدن في الجانب الغربي للعربية[1] , خمس منها ذكرها بطلميوس بنفس التسلسل[2], ما يرجح أنه قام بنقلها عنه .أما المدينة السادسة وهي مدينة جيابوليس (Geapolis) التي ذكرها أميانوس فقد ذكرها بطلميوس في مكان آخر[3], ولم يذكر أميانوس مدينة "مكورابا"التي ذكرها بطلميوس في الجانب الغربي من العربية التي سبقت الإشارة إليها ,ولكن أميانوس ذكر بدلا منها مدينة هَيّرَابوليس (Hierapolis),ويتكون الاسم من (Hiera) بمعنى مقدسة, وبوليس(polis) بمعنى المدينة عند الإغريق والرومان ؛أي تعني

---

(١) Ammianus Marcellinus,Remum Gestarum Libri xxii ٦:٤٧.

وراجع أيضا:

Thompson(E.A.),The Historical Work of A.M., London١٩٤٧.

(٢) \Ptolemy ,Geography,vi ٧,٣٥-٤٥ .

(٣) Ptolemy ,op.cit.,vi,,٧:٢٩.

ترجمتها الحرفية دون أي لبس "المدينة المقدسة ",ووضعها في الجانب الغربي من العربية , ويرجع السبب إلى أن قداسة المدينة-مكة- أصبحت معروفة في القرن الرابع الميلادي , ويعضد ذلك أنه لم يشر إلى مدينة مكورابا التي سبق وذكرها بطلميوس, والتي كان يقصد بها مكة كما سبق وذكرنا .لقد بدأت صورة الطرق الرئيسة ومراكز التجارة الداخلية تتضح بالتدريج في القرن الرابع م , حقيقة لم يكن طريق التجارة الرئيس المتجه غربا يمر مباشرة بمكة , بل كان يمر عليها طريق فرعي متفرع من الطريق الذي يصل إلى تربة شرقها ؛ ليزود مكة بحاجتها من اللبان والمر والبضائع الأخرى ,كما أكدت الكشوف الأثرية الحديثة في موسم حفائر عام ١٤٢٠-١٤٢١هـ/٢٠٠٠-٢٠٠١م[1].

---

(١) Lewis(C.T)and Short(C.),A Latin Dictionary,Oxford١٩٦٩,p.٨٥٤. ؛ وورد في القاموس نفسه اسم ماكتوس mactus بمعنى المقدس, وكلمة ماكتا macta معنى التضحية الدينية , راجع ص ١٠٩٤ .

كان طريق البخور الرئيسي يبدأ من شبْوة إلى تمنع ومنها إلى مَعين ثم إلى نجران ومنها يتفرع إلى اتجاهين :

الأول : ينطلق منها مارا بتثليث ثم يتجه إلى تبالة إلى الغرب من بيشة ثم إلى الطائف , ويعتقد البعض أن هذا الطريق لا يمر بمكة وإنما يسير عن طريق تربة الواقعة إلى الشرق منها ويتفرع منه طريق آخر يسير من تربة إلى مكة ,ثم يتجه شمالا إلى يثرب –خيبر– دادان العلا (مارا بالحجر –مدائن صالح) في طريقه من البتراء إلى غزة .

الثاني : يبدأ من نجران مارا بتثليث إلى وادي الدواسِر – ثم إلى السليل مارا بقرية الفاو ومنها يتجه إلى الأفلاج ثم إلى الخرج ,ويتفرع منها إلى طُرق عدة باتجاه بلاد=

المحور الثاني

الحج في مكة قبل الإسلام

تقول كرون في هذا الموضوع :[كان الحجاج يقومون بعد زيارة عكاظ وذي المجاز ومِجنَّة بزيارة عرفة ومِنى ,ولكن هل كانوا يتبعون ذلك بزيارة مكة أيضا ؟ لقد رفض فيلهوزِنْ (Wellhausen) هذا الرأي على أساس أن إجراءات حج المسلمين مازال يدور أغلب مراحلها خارج مكة ,وهذه الفكرة من الصعب إنكارها

=الرافدين وشمال الجزيرة العربية .راجع : الخثعمي (مسفر بن سعد بن محمد),"الأثر السياسي والحضاري لدرب البخور في عصور ما قبل التاريخ ",مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ,العدد رقم (٣),١٤٢٣/٢٠٠٢م,ص٢١ . وأكدت الحفائر الأثرية التي قامت بها وزارة المعارف السعودية في موسم حفائر ١٤١٧ لطريق البخور المتجه إلى مكة والتي تمت آخر مرحلة من مراحل المسح من الحدود الإدارية لمحافظة تربة باتجاه الشمال الغربي مرورا بمحافظة الطائف ,نزولا إلى مكة المكرمة ,وكذلك موسم حفائر عام ١٤٢٠-١٤٢١ هجرية ,والتي قام بها فريق العمل بمسح أثري لمسافة تقدر بحوالي١٨٠ كم بدءا من تربة وحتى مكة المكرمة ,أكدت وجود ٢٥ موقعا ومحطة أثرية على الطريق ,بعضها أساسات لقرى قديمة , وتم العثور على بعض أجزاء من الطريق القديم وإحدى المحطات الهامة ,وعثر على اثنتي عشرة علامة وعدد ١٧ بئرا ,و٤ نقوش ثمودية . وراجع أيضا : الراشد,سعد بن عبد العزيز ,"تقرير موجز عن النشاط الأثري في المملكة العربية السعودية لعامي ١٤٢٠/١٤٢١هـ-٢٠٠٠/٢٠٠١م,دول مجلس التعاون لدول الخليج العربية عبر العصور ,ج٣,الرياض : جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ,١٤٢٣هجرية/٢٠٠٢م,ص٤٤٨-٤٥٠ .

حقيقة أن الحج يبدأ من مكة ,ولكن بدايته الرسمية تبدأ من عرفة ثم تنتهي في مكة ,أما نهايته الحقيقية فهي منى التي يتم تقديم الأضاحي فيها ,وفيها يقوم الرجال بحلق شعرهم ولحاهم ,أي تنتهي فيها حالة الإحرام وهذا يدفع إلى القول بأن زيارات مكة قد أضيفت إلى الإجراءات الأصلية ؛ ولدينا سببان إضافيان يؤيدان هذا الافتراض : الأول : يتمثل فيما لاحظه فِيلهاوزن من حيث ارتباط المناصب الدينية المرتبطة بالحجاج إلى عرفة بأنها تقع في أيدي تميم وآخرين وليست قريش : لأن قريشاً كانت مسؤولة فقط عن الحجاج في مكة نفسها . والثاني : لقد تمت إضافة مكة لكي ينتهي الحج فيها ؛ إذ كانت كل من منى وعرفة غير مأهولة بالسكان ,ولا يوجد بها حُراس , ولا يقيم فيها سكان بصفةٍ دائمة ,وكان نشاطها يقتصر فقط على الأشهُرِ المقدسة .وكانت كل من عكاظ وذي المجاز ومِجنّة هي الأماكن المقدسة التي يبدأ منها الحجاج زياراتهم : وكونت الهياكل الخمسة خارج مكة مجموعة طبيعية ,ولكن مكة هي المدينة التي يقيم فيها السكان بصفة دائمة والتي يوجد بها البيت الحرام المزود بالحراس .وكان هيكلها المقدس يقف على قدم المساواة مع عبادة اللات في الطائف , والعُزى في نخلَة ,التي لم تكن مجرد هياكل مقدسة في الصحراء . وكان الحج عبارة عن أداء شعائر تقام في

الأماكن والأوقات التي يضع فيها كل فرد سلاحه ,ولم يكن يخضع لسيطرة لأحد , ما يعني أن الهيكل المقدس الذي كان يقع تحت سيطرة قبيلة معينة لا يدخل في إطار هذه التركيبة] [١].

وتواصل كرون قولها : " ويمكن بطبيعة الحال القول إن الحج كان يمتد لمكة حتى قبل الإسلام ,وتلك هي الصورة التي رأى لامنز (Lammens) مكة عليها ,فهو يرى أنه تم اختصار هياكل كل من عرفة ومنى لتصبح محطات على حدود الطريق لمكة قبل الإسلام نتيجة لشروع قريش في توسعها التجاري .ولكن هذا الرأي بعيد عن الاحتمال .فالرواية كانت حريصة في المقام الأول على فصل كل من عرفة ومنى عن باقي المقدسات الصحراوية وبدلا من ذلك ألحقتها بمكة"[٢].

وقد ادعت الباحثة بعد ذلك أنها لم تستطع العثور على أي دليل خاص بالحج إلى مكة ,وتختم مناقشتها للموضوع بالموافقة على رأي فلهوزن ["بأن مكة لم تكن موضعا للحج قبل الإسلام......... أما مواسم الحج فهي الأوقات التي كانوا يقيمون فيها متاجرهم ,أي التي يتاجرون فيها ,..... وكانت تلك الأسواق هي أسواق مكة,

---

(١). Crone, Op.Cit pp. ١٧٣-١٧٤

(٢). Crone, Op.Cit p.١٧٤

بينما لم تكن مكة نفسها سوقا ,فعكاظ وذو المجاز ومجنَّة كانت هي أسواق قريش والعرب "][1] .

قبل أن نبدأ المناقشة نلاحظ الآتي :

أولاً : أن كرون تخطئ بادعائها ["أن الحج الإسلامي ينتهي بالتحلل من الإحرام وذبح الهدي في مِنى وفيها يقوم الرجال بحلق شعرهم ولحاهم ,أي تنتهي فيها حالة الإحرام "], ومما لا شك فيه أن هذا الادعاء سيقع موقع القبول والتصديق في نفوس القراء من غير المسلمين الذين لا يعرفون تفاصيل ومسار شعائر الحج الإسلامي الذي يمثل أحد أركان العقيدة الإسلامية .أما الحقيقة فإن اكتمال شعائره لا تتأتى إلا إذا كانت مكة هي البداية والمنتهى ,أي الطواف بالبيت في البداية والنهاية ,إضافة إلى التلبية ؛ كما أن الرجال لا يتحللون من الحج بحلق اللحى ويقتصر التحلل لديهم على حلق الشعر .

ثانياً : أن المصادر الإسلامية التي تتجاوزها وتشير إلى ارتباط الحج الجاهلي بمكة كثيرة ,فهي على سبيل المثال لا الحصر على النحو الآتي : ذكر الكلبي أن العرب بعد إبراهيم وإسماعيل- عليهما السلام - كانوا" يعظمون الكعبة ومكة ,ويحجون ويعتمرون

---

(١) Crone,Op.Cit.,p.١٧٦,١٧٨.

على إرث إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام –"[١],ويشير الأزرقي عند حديثه عن حفر بئر زمزم إلى أن عبد المطلب "حفر زمزم فعفت على آبار مكة كلها , وكان منها مَشرب الحاج " ؛ كما يذكر أيضا عن دخول قصي بن كلاب مكة لأول مرة بعد عودته إليها "فأقام قصي حتى دخل الشهر الحرام وخرج في حاج قضاعة حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج أقام فيها "[٢],ثم يضيف قائلا :"وكانت الحِلّة تطوف بالبيت أول ما يطوف الرجل والمرأة في أول حِجة يُحجها عراة ,ثم يعود ويقول :"أما السقاية فلم تزل بيد عبد مناف ,فكان يَسقي الماء من بئر كرم آدم وبير خُم على الإبل في المُزاد والقِربْ ,ثم يسكب ذلك الماء في حياض من أدم بفناء الكعبة فيرده الحاج حتى يتفرقوا "[٣]. ويتحدث ابن هشام عن العرب في الجاهلية قائلا :"واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعَبدوا الأوثان ,وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم من قبلهم من الضلالات ,وفيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم البيت

(١) الكلبي, هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤هـ/٨٢١م),الأصنام,تحقيق محمد عبد القادر أحمد,أحمد محمد عبيد ,القاهرة (بدون تاريخ),ص٢٢

(٢) الأزرقي ,أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد(ت٢٢٢هـ /٨٣٧م),أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار , تحقيق رشدي صالح محلس , مكة :١٤٠٣/١٩٨٣م,ج١,ص ١١٣,ص ١٠٥ على التوالي .

(٣) الأزرقي ,المصدر السابق ,ج١,ص١٨٠-١٨١.

والطواف به والحج والعُمرة ,والوقوف على عرفة والمزدلفة , وهدي البُدْن والإهلال بالحج والعُمرة ,مع إدخالهم فيه ما ليس منه"(١) , ويقدم لنا ابن هشام سويد بن الصامت الذي أسلم وكان

---

(١) ابن هشام ,السيرة النبوية , ,ج١,ص٧٧-٧٨ :"كانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : "لبيك اللهم لبيك ,لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ,تملكه وما ملك "فيوحدون بالتلبية ,ثم يدخلون معه أصنامهم ,ويجعلون ملكها بيده ,ويقول تبارك وتعالى لمحمد ﷺ ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ (يوسف :الآية ١٠٦) ؛وعن الحج إلى مكة يقول ياقوت الحموي ,"حج إليها ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحُمُس من قريش ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضا وشرفا عندهم عظيما ".ياقوت الحموي (شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله (ت٦٢٦ هجرية /١٢٢٨م) ,معجم البلدان,بيروت بدون تاريخ ,ج٥,ص ١٨٣ ؛ ومن النصوص الأخرى التي ذكرها الأزرقي ما يأتي :" لما أراد تبع الثالث هدم البيت وكان سبب خروجه وسيره إليه أن قوما من هذيل من بني لحيان جاءوه فقالوا : إن بمكة بيتا يعظمه العرب جميعا ,وتنحر عنده وتحجه وتعتمره "ج١,ص١٣٢ . ويقول أيضا : إن عمرو بن لحي "نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديدًا,وهي التي كانت للأزد وغسان ,يحجونها ويعظمونها ,فإذا طافوا بالبيت وأفاضوا من عرفات وفرغوا من منى لم يحلقوا إلا عند مناة ,وكانوا يهلون لها ,ومن أهلَّ لها لم يطف بين الصفا والمروة لمكان الصنمين اللذين عليهما نهيك مجاور الريح ومطعم الطير . الأزرقي ,المصدر السابق ,ج١,ص ١٣٣,١٢٥,١٣٢على التوالي ؛راجع ياقوت الحموي,معجم البلدان,ج٥,بيروت :١٣٩٩-١٩٧٩م,ص٢٠٤. وعن سقاية الحاج قال المولى عز وجل ﴿ أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾,التوبة :(الآية١٩).

هو الآخر قادما إلى مكة حَاجًا ومعتمرًا[١].

إن النص الذي أورده الثعالبي , يقرر فيه صراحة أن قريشا كانت لا تتاجر إلا مع من ورد عليها في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ وفي الأشهر الحرم[٢] , وهو النص الذي نقلته كرون إلى الحروف اللاتينية على النحو الآتي :

" kanat Guraysh la tutajir illa maa man warada alayha Makkata Fi–Lmawasim wa-bi-Dhi L-Majaz wa –Suq ukaz wa-Fi- Ashhur al-hurum"[٣].

فهي تذكر أن المواسم تعني الأشهر الحرم ,ولا خلاف معها في هذا ,ثم تذكر بعد ذلك :وكان الناس يأتون فقط في الأشهر الحرم إلى ذي المجاز وعكاظ ,أما حرف الــــواو" wa" الأول والأخير فهو

---

(١) ابن هشام ,السيرة ج١ ,ص٤٢٧ ؛ يذكر ابن الأثير: "أن سويد بن الصامت جاء مكة حاجا ومعتمرا " ؛ وإذا كان النص صحيحا فمعنى ذلك أن سويدا سيظل مقيما في مكة حتى شهر رجب ؛ لأن العرب في الجاهلية كانت لا تحل الجمع بين الحج والعمرة ,وإن كنت أميل– نظرا لطول المدة –إلى النص الذي ذكره ابن هشام فهو الأقرب إلى المنطق .ابن الأثير ,على بن أبي الكرم (,ت ٦٣٠ هجرية /١٢٣٣م), الكامل في التاريخ , بيروت :الطبعة الثانية ١٣٨٧–١٩٦٧م ,ج٢ ,ص٦٦ ؛ راجع ما ذكره الأزرقي ,أخبار مكة , ج١ ,ص١٠٥ ؛ عن دخول قصي بن كلاب مكة بعد عودته من الشام يقول أن قصي" أقام حتى دخل الشهر الحرام وخرج في حاج قضاعة حتى قدم مكة فلما فرغ من الحج أقام بها ".

(٢) Crone,Op.Cit., no.٤٧,pp. ١٧٧,١٧٨

(٣) Ibid

لا يعني "و"(and),ولكنه يعني "وتلك هي-that" , فهي بعد أن تقصر المواسم على الأسواق وتغفل مكة منها ؛ تعود وتقول : إن ترجمة الفقرة السابقة ينبغي أن تكون على النحو الآتي : "اعتادت قريش على أن تتاجر فقط مع أولئك الذين يحضرون إلى مكة في موسم الحج ,والممثلة في ذي المجاز وسوق عكاظ في الأشهر الحرم :

"Qaraysh used only to trade with those who came to them at Mecca in the pilgrim season ,that is Dhū l-Majaz and the market of Ukāz in the holy months" (١).

ونلاحظ هنا أنها قد اعترفت بقيام حج في مكة ,ولكنها مرت على هذا الاعتراف سريعًا,ولم تتوقف عنده لمناقشته على الرغم من إجراء التعديل في حروف العطف وإضافة كلمة "والممثلة " لتغيير ما يفهم صَراحة من النص ,وحتى هذا التعديل الذي لا يجوز جاء لغير ما ارتأت . وفوق كل ما تقدم فإن كلمة مكاتا (Makkata) التي أوردتها في النص بالحروف اللاتينية "خطأ"لا وجود لها في النص العربي في النسخة التي استخدمتها ورجعت إليها, والموجود فيه كلمة "مكة " بدلا منها ؛ما يؤكد تحريف النص ؛إضافة إلى عدم ذكرها النص كاملا بل اقتطعته وقدمت جزءا منه فقط .

---

(١) Ibid

والنص الصريح والكامل الذي رجعت إليه في كتاب الثعالبي لا يحتاج إلى ما قامت به من تعديل,وهو على النحو الآتي : "كانت قريش لا تتاجر إلا مع من ورد عليها مكة في المواسم وبذي المجاز وسوق عكاظ ,وفي الأشهر الحرم لا تبرح دارها , ولا تجاوز حرمها للتحمس في دينهم ,والحب لحرمهم ,والإلف لبيتهم ,ولقيامهم لجميع من دخل مكة بما يصلحهم " (١).

النص الذي قدمه الثعالبي واضح وصريح يذكر فيه أن قريشا كانت تتاجر مع من ورد على مكة من العرب الذين يأتون في المواسم في أسواق ذي المجاز وسوق عكاظ خلال فترة الأشهر الحرم ,وخلال تلك الفترة كانت قريش لا تغادر مكة للتحمس في دينهم وتقديس حرمهم ,فقد كانوا يقدمون لجميع من دخل مكة لتأدية الحج ,كل الخدمات التي كانوا في حاجة إليها ويعني الرفادة والسقاية.

---

(١) الثعالبي ,أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري(٣٥٠-٤٢٩هجرية),ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ,تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ,القاهرة : ١٣٨٤-١٩٦٥م,ص١١٥ ,وهي النسخة نفسها التي اعتمدت عليها كرون ؛ واعتمد ناشر كتاب الثعالبي على ثلاث مخطوطات لنشر الكتاب ,ورد في واحدة منها فقط حرف الجر (في),بدون (واو) العطف ,بينما وردت الأخيرة في النسختين الأخريين ,وأفضل الاعتماد على ما ورد في النسختين لأنها تؤدي المعنى الذي قصده الثعالبي من عدم مبارحة قريش لمكة أثناء موسم الحج وأنهم كانوا لا يعظمون شيئا من الحل .

وكما يظهر لنا أن النص واضح وليس في حاجة إلى تغيير في الكلمات والمعنى , وكانت الأمانة العلمية تقتضي ذكره كاملا ,وعدم تحريف كلماته ,الأمر الذي لم تقم كرون بفعله ؛ مخالفة بذلك أسس البحث العلمي ومنهجه السليم ,وفوق كل ما تقدم فقد ربط الله – سبحانه وتعالى – سقاية الحاج والحج بمكة – المكرمة– فقال تعالى : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ كَمَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَجَٰهَدَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ لَا يَسْتَوُۥنَ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾,التوبة : (الآية١٩)[١] .

وهكذا نرى أن الحج ارتبط بمكة ,وكانت الإجازة فيه تتوارثها بعض الأسر,نعرف منها من بني مُر الغوث بِن مُر وأولاده من بعده, وخَلفهم شخص آخر يدعى صَفوان وأبناؤه من بعده[٢]. أما الإفاضة من مزدلفة فكانت في عِدوان التي توارثوها كابرا عن كابر[٣] . ويذكر ابن حَبيب أن العرب كانوا يحجون البيت

---

(١) سورة التوبة :الآية (١٩).

(٢) ابن الأثير ,الكامل في التاريخ ,ج٢,ص ١٧حيث روي عن عفيف الكندي أنه قال : "وقدمت مكة أيام الحج في أولى مراحل الدعوة ".

(٣) ابن هشام ,السيرة ,ج١,ص ١٢١ ؛ ابن الأثير , ج١,ص١٢–١٣ ؛الحموي ,معجم البلدان , ج٥,ص١٨٦–١٨٧ ؛ الطبري,محمد بن جرير (ت٣١٠ هجرية/٩٢٣م) ,تاريخ الرسل والملوك , ج٢,تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم , لبنان : بدون تاريخ,ص٢٥٧.

ويعتمـرون ويطوفـون بالبيـت أسـبوعًا ,ويمـسحونَ الحجـر الأسـود ويسعون بـين الـصَّفا والمروّة ...... وكـانوا يلبـون إلا أن بعـضهم كـان يـشرك في تلبيته"[١] . ثـم يـضيف إلى ذلـك قائـــلا : "وكانـت العـرب تقـف بعرفـات , ويَـدفعون منهـا والـشمس حيّـة ,فيـأتون مزدلفـة , وكانت قريش لا تخرج من مزدلفة ولا تقف بعرفات .ويقولـون : "لا نُعظم من الحِل ما نُعظم من الحَرم , فبني قُصي (بـن كـلاب) المِشعر فكان يُسرج عليه ليهتدي بــه أهل عرفات إذا أتوا مُـــزدلفـــة .... وكانوا يهدون الهدايا ويرمون الجمار"[٢] .

وبعد أن يقضي الحجيج ليلتهم في مزدلفة ينتقلون مع شروق الشمس ليذهبوا إلى منى التي تقع علـى بعـد ثلاثـة أميال مـن مكـة ويظل الحاج مقيما فيها ثلاث ليال من اليوم العاشر إلى اليوم الثاني عشر أو الثالث عشر ,يقوم فيها برمي الجمار وإتمام باقي المناسك من الرجم والتضحية وقص الـشعر ,ثـم يـدخلون مكـة بعـد ذلـك للقيـام بطـواف الإفاضـة ,ولا تنتهـي مراسـم الحـج إلا بإتمـام جميـع هـذه المناسك .

---

(١) ابن حبيب,محمد (ت ٢٤٥هجرية) ,المُحبّر ,تحقيق إيلزه ليختن شتيتر , بيروت : بدون تاريخ,ص ٣١١.

(٢) يذكر ابن حبيب في المحبر التلبية التي كانت تلبي بها كل قبيلة عربية أصنامها أثناء الطواف بالبيت الحرام .راجع ص ٣١١-٣١٩ ؛ الأزرقي,مكة ,ج١,ص١٧٦-١٧٩.

والمعروف أن قُصي بن كلاب الجد الأكبر للرسول (ﷺ) فرض أموالا على قريش تخرجها كل عام ,يدفعها الفرد كلٌّ قدر طاقته ,وخصص دخلها لإطعام الحجيج في منى[١] , كما ارتبطت السِدانة والسقاية بالحرم والحجيج الذي كان يَفد لتأدية شعائر الحج[٢] الذي يبدأ أول مناسكه وآخرها بالطواف حول الكعبة المشرفة[٣].

ثالثاً : أما حُجَّة كرون الثالثة التي استخدمتها لنفي وجود حج إلى مكة قبل الإسلام, وأن الحج مقصود به مواسم العرب في الأسواق الثلاثة القريبة من مكة , وأن الرسول (ﷺ) قام في مراحل الدعوة الأولى بزيارتها للدعوة فيها إلى الإسلام , وأخذت من هذا

(١) الكلبي, هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٤ هجرية/٨٢١ م),الأصنام,تحقيق محمد عبد القادر أحمد ,أحمد محمد عبيد ,القاهرة بدون تاريخ ,ص٢٣ ؛ابن حبيب ,المحبر ,ص٣١٩ ؛ وعن قبائل الحل التي تقف خلف الحرم راجع ابن حبيب,محمد ,المنمق في أخبار قريش ,تحقيق خورشيد أحمد فاروق, دلهي – الهند : ١٣٨٤-١٩٦٤م,ص١٧٩ ؛ الطبري ,تاريخ ,ج٢,ص٢٦٠ .

(٢) يبدو أن الرفادة لم تكن جديدة على مكة في عهد قصي ,إذ يذكر الإخباريون أن عمرو بن لحي زعيم خزاعة كان يطعم الحاج ويقيم الموائد في أيام الحج ؛ وقالوا : إنه ربما ذبح أيام الحج عشرة آلاف بدنة , وكسا عشرة آلاف حُلة في كل سنة ,يطعم الحجيج ويحيس لهم الحيس بالسمن والعسل ويلت لهم السويق ؛ راجع ابن الأثير, الكامل ,ج٢,ص١٨٢ ؛ الأزرقي ,مكة ,ص ١٠٠ .وتذكر الروايات أن عمرو بن لحي هو الذي أدخل عبادة الأصنام في مكة وما حولها ؛ راجع الحموي ,معجم , ج٥,ص٣٦٧-٣٦٨.

(٣) ابن هشام السيرة ,ج٢,ص٢٠٢ .

الحدث دليلا لتأكيد شكها[(١)] .

التفسير المنطقي لما قام به الرسول (ﷺ) يرجع إلى محاولته الخروج من دائرة اضطهاد قريش له ,حتى يتمكن من توسيع نطاق نشر دعوته بين أكبر عدد ممكن من القبائل العربية, التي تتقاطر في المواسم على مكة,وكانت تُعد بمثابة ملتقى عام للجزيرة العربية بقبائلها وعباداتها وثقافتها ,فليس كل من كان يحضر إلى الأسواق التجارية – المواسم- كان يأتي إلى مكة لتأدية شعائر الحج فيها ؛لذلك فضل الرسول (ﷺ) الذهاب إليهم في مضاربهم لنشر رسالة الله سبحانه وتعالى بينهم[(٢)] .

---

(١) Crone,Op.Cit.,no.٣٩,P.١٧٧ .

(٢) انقسم العرب إزاء حرمة الأسواق الثلاثة إلى ثلاث فئات : الأولى استحلت المظالم فيها في الأشهر الحرم, فارتكبوا كل أنواع المنكر من قتل وسلب وبغي ,ولم يحفظوا حرمة الأشهر ,وسموا "المُحلين ",وهم قبائل أسد وطيئ وبكر بن عبد مناة وقوم من بني عامر بن صعصعة ومن خثعم وقضاعة ؛ إضافة إلى الصعاليك ومن قامت قبائلهم بنفيهم والتبرء منهم .والفئة الثانية هي التي حافظت على حرمة الأشهر الحرم وجعلت وللقائمين على البيت الحرام مكانتهم ,فكفوا عن المعاصي ونصبوا أنفسهم لنصرة المظلوم . والفئة الثالثة هي التي أحلت قتال المُحلّين ,وشرعه لهم صلصل بن أوس من بني عمرو بن تميم . وكانت فيهم قبائل من طئ ومن بني أسد . راجع المرزوقي ,أحمد بن محمد بن حسن الأصفهاني ت ٤٢١هـ /١٠٣٠م), الأزمنة والأمكنة .ج ٢ ,القاهرة : بدون تاريخ,ص١٦٦ ؛ وعن مقابلة عمرو بن عبسة للرسول ﷺ بعكاظ راجع : ابن الأثير ,الكامل .ج٢,ص ٣٨ ؛ وعن مقابلته القبائل في المواسم, راجع المصدر والجزء السابق ,ص٦٥ ؛ الطبري ,تاريخ,ج٢,ص٣٤٨ -٣٦٠ ؛ عن مقابلته=

رابعاً : أن أحد الأسانيد التي تعتمد عليها كرون في ادعائها عدم قيام حج في مكة قبل الإسلام أن الحجيج كان يتجه إلى الأسواق المذكورة سابقا ,وهم في حالة إحرام ,ويعزز هذا الرأي في نظرها وجود قريش على هذه الحالة في عكاظ عندما نشبت حرب (الفجار) التي كان بَرّاض السبب في إشعالها[١] ,وقد أكد ابن حبيب "أن قريشا لم تذهب إلى ذي المجاز إلا وهي مُحرمة[٢] ".

وهذا الأمر والطريقة في الملابس التي كانت تضعها قريش عند زيارتها للمواسم التي تقع على مقربة منها ليس محط غرابة ,ويرجع ذلك إلى تعظيمها للأشهر الحرم , فقد كانت قريش والعرب "يعظمون أن يأتوا شيئا من المحارم أو يُعدوَ بعضهم على بعض في الأشهر الحرم وفي الحرم "[٣] الذي شُرِّفت بخدمته والوقوف عليه ,

=لقبائل كندة وبني حنيفة وكلب وبني عامر بن صعصعة والأوس والخزرج , راجع بن الأثير ,الكامل , ج٢,ص٣٨,٦٥ ؛ الأفغاني ,أسواق العرب في الجاهلية والإسلام,دمشق ١٩٦٢ ,ص١,٨٠ – ٨١.

(١) Crone,Op.Cit.,P.١٧٣.

(٢) ابن حبيب ,المنمق ,ص ١٩٦.

(٣) ابن هشام السيرة ,ج١, ١٩٢ .

وفي الوقت نفسه كانت قريش تتأهب لتأدية الحج الذي احتفظوا مع العرب بمناسكه منذ رفع إبراهيم وإسماعيل –عليهما السلام– القواعد من البيت على الرغم من الشعائر الوثنية التي أدخلوها على ديانة إبراهيم –عليه السلام– . وبعد أن ابتدعت قريش الحُمُس أضافت إليه أمورا تؤكد فيها تمسكها بحرمة البيت وتعظيم الحجيج وقالوا : "لا ينبغي لأهل الحل أن يأكلوا من طعام جاءوا به معهم من الحِل إلى الحرم إذا جاءوا حجاجا وعمارًا ,ولا يطوفون بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحُمُس, فإذا لم يجدوا شيئا طافوا بالبيت عراة,فإن تكرم منهم متكرم من رجل أو امرأة ,ولم يجد من ثياب الحُمُس فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها إذا فرغ من طوافه ,ثم لا ينتفع ولم يمسها هو ولا أحد غيره أبدًا,.فكانت العرب تسمي الثياب اللُقي . فحملوا العرب على ذلك ,فدانت به العرب ,ووقفوا على عرفات وأفاضوا منها ,وطافوا بالبيت عراة : أما الرجال فيطوفون عراة ,وأما النساء فتضع إحداهن ثيابها كلها إلا درعا مفرجا عليها ثم تطوف به(١) .

خامساً : تذكر كرون أن البيت الحرام كان يقف على قدم المساواة مع هيكل اللات في "الطائف ",والعُزى في "نخلة",وترى أنها

(١) ابن هشام ,السيرة ,ج١.ص ٢٠٢ ؛الأزرقي ,مكة ,ج١,ص ١٨٠-١٨٢.

لم تكن مجرد هياكل مقدسة[١] . وهي هنا لا تذكر المصدر الذي اعتمدت عليه في تقرير هذه المساواة ,حقيقة كان لسكان الجزيرة العربية في العصر الجاهلي هياكل مقدسة أخرى يقصدها الحجيج , وكان أشهرها بيت" الأُقَيْصِرِ "[٢] في مشارف الشام لقبائل قُضاعة ولخم وجذام وعاملة ,وبيت "ذى الخَلصَةَ"[٣] بتبالة بين مكة والطائف لدوس وجشعم وبجيلة , وبيت" رِئام" بصنعاء لحمير وأهل اليمن[٤] ,"وبيت رُضي [المسَتوْغِرُ]"لبني ربيعة بن كعب بن سعد بن زيد مناة بن تميم [٥] ,وكانت العُزى بنخلة لقريش [٦] وكانت اللات لثقيف بالطائف [٧] ,ومَنَاةُ للأوس والخزرج [٨] ,وكان الفِلس لطئ[٩] , وكان ذو الكَعَبات لبكر وتغلب بني وائل ,إلا أنه لم يجتمع لبيت من هذه البيوت ما اجتمع لبيت مكة في نفوس العرب جميعا[١٠] ,

---

(١) Crone,Op.Cit.,P.١٧٤.

(٢) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٥٣ .

(٣) المصدر المذكور أعلاه ,ص ٤٩-٥٠ ؛ابن حبيب ,المحبر ,ص٣١٢,٣١٧ .

(٤) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص ٢٧-٢٨ ؛ ابن كثير ,ج ٢ ,ص١٩٢.

(٥) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص ٤٥-٤٦ ؛ الحموي ,معجم البلدان ,ج٥,ص ٢٠٤- ٢٠٥

(٦) ابن الكلبي ,ص ٣٣-٤٣ ؛ابن كثير ,ج٢,ص ١٩٢ .

(٧) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٣١ ؛ الحموي ,معجم ,ج٥,ص ٤ ؛ابن حبيب المحبر ,ص ٣١٥.

(٨) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص ٢٨ ؛الحموي ,معجم ,ج٥ ,ص ٢٠٥ .

(٩) ابن حبيب ,المحبر ,ص ٣١٦ ؛ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٧٠.

(١٠) ابن كثير .الكامل,ج٢,ص١٩٢ ؛ وعن التلبية التي كان يلبي بها العرب أثناء زياراتهم لهذه الأصنام راجع : ابن حبيب ,المحبر ,ص٣١١-٣١٩.

ويذكر ابن الكلبي أنه عندما قام رجل من جهينـــة يقال له عبد الدار بن حديب يدعو قومـــه قائلا : "هلم نبني بيتا – بأرض من بلادهم يقال لها الحَورَاء- نضاهي به الكعبة ونعظمه حتى نستميل به كثيرا من العرب عظموا عليه ذلك وأبوا عليه"(١). كذلك لم تخف المصادر الإسلامية ذهاب بعض جموع من عدنان ومضر وقريش إلى نخلة لتقديس العُزى وزياراتهم اللات في الطائف ومَنَاةُ عند قُضاعة(٢).

وترجع أصل عبادة الأصنام إلى ما ذكره ابن إسحق تفسيرا لها بقوله : "أن أول عبادة الحجارة في بني إسماعيل ,أنه كان لا يَظعَن من مكة ظاعن منهم ,حين ضاقت عليهم ,وانتووا الفِسحَ في البلاد ,إلا حَمَل معه حجرا من حجارة الحَرم , فحيثما نزلوا وضعوه فطافوا به كطوافهم في الكعبة ,حتى سلخ ذلك إلى أن كانوا يعبدون ما استحسنوا من الحجارة وأعجبهم ,حتى خلف الخلوف ,ونسوا ما كانوا عليه ,واستبدلوا بدين إبراهيم غيره ,فعبدوا الأوثان ,وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم قبلهم من الضلالات "(٣) . وهو نفس

---

(١) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٥٨.

(٢) الكلبي .الأصنام ,ص٢٨ وعن الأصل في عبادة الأصنام والأنصاب عند عرب الجاهلية .راجع :الكلبي المصدر السابق ,ص ٤٨ وما يليها .

(٣) ابن هشام,السيرة ,ج١ ,٧٧-٧٨.

الشيء الذي حدث مع غيرهم من الشعوب الأخرى ,فقد عرف اليهود الله – سبحانه وتعالى – ,وبالرغم من ذلك عبد يهود إلفنتين (Eliphantin أسوان في جنوب مصر) آلهة وثنية . وتشير الوثائق الآرامية التي عثر عليها في إلفنتين إلى أنه كان لديهم خمسة آلهة يعبدونها هناك(١).

تـوارث العرب أخبار الكعبة منذ رُفعت قواعدها(٢), وظلت دائما مثابة للناس جميعًا وأمنًا ,لا يمنع أحد من التعبد فيها ,وسمحت قريش للجميع على اختلاف نحلهم بالطواف حولها والتعبد فيها لكونها بيت الله .لقد قامت قدسية البيت حول الكعبة ذاتها بصرف النظر عن الأوثان التي نُصِبت بين جنباتها , والواقع أن القارئ لا ينبغي أن يصاب بالدهشة من تنصيب الأصنام في بيت الله في مكة قبل الإسلام , فلم ينفرد العرب في هذا الأمر دون غيرهم في الجمع بين بعض بقايا ديانة إبراهيم –عليه السلام– وبين الوثنية, فقد قام السامري بتنصيب عجلٍ لليهود له خوار ليعبدوه إلى جانب عبادتهم لله – سبحانه وتعالى – على الرغم من أنهم أهل عقيدة سماوية ,وكان موسى– عليه السلام – ما يزال حيا

---

(١) **Cowley (A.) ,Aramic Papyri of the ٥th. Cent. B.C. ,Oxford. ١٩٢٣;Driver (G.r.), Aramic Document of the Cent,B.C.,١٩٢٤.**

(٢) قام تبان أسعد أبو كرب بتعمير البيت وكسوة الكعبة .ابن هشام ,ج١ ,ص٢٠.

وموجودا بينهم,ناهيك عن عبادة اليهود لآلهة وثنية بعد ذلك فقد سبق أن أشرنا إليها ,فما بال العرب الذين طال العهد بينهم وبين عبادة إبراهيم الحنيفية, من هنا جاء خلطها بكثير من مظاهر الوثنية . على أي حال لم يُطلق العرب على أي من الأصنام لقب "رب البيت", وكانوا إذا قالوا رب البيت فهم يقصدون ربا فوق كل الأرباب ,بينما كانت بيوت الأصنام الأخرى قد خُصِص كل منها للصنم القائم فيها . من هنا كانت سيادة كعبة مكة التي رأت فيها العرب أنها بيت الله الخالق المبدع ,وكانوا يزعمون أن عبادة الأصنام تقربهم إلى الله زلفى, وأشار المولى – عز وجل– إلى ذلك في سورة الزمر الآية الكريمة رقم (٣) ﴿ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (١) .

---

(١) ظهر جليا من الشعر العربي أن العرب عرفوا الله سبحانه وتعالى ,فعندما كان أوس ابن حجر يقسم باللات كان يقول :

وباللاتِ والعزى ومَن دانَ دينها ... وبالله إن الله منهن أكبر

راجع : الحموي ,معجم ,ج٥,ص٥.

وقال درهم بن زيد الأوسيُّ :

إني، ورَبَّ العُزَّى السعيدةِ ... والله الذى دُوَن بَيْتِه سَرِفُ

ابن الكلبي,الأصنام ,ص٣٦ ؛ حاشية (٢).

ويقول خداش بن زهير العامري لعثعث بن وحشي الخثعمي في عهد كان بينهما فغدر به :

وذكرتُهُ بالله بيني وبيَنه ... وما بيننَا من مُدة لو تذكرَا

ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٥٠.وقال الشاعر عند حفر إحدى الآبار بمكة قبل الإسلام : =

أقرت قريش بحرمةِ مكة ,وحفظت لها مجالا حولها ,كما أقرت لأهل الحرم بحقوق يمكن تشبيهها بحقوق المواطنة المعروفة في العالم القديم,وسمت المتمتعين بهذه الحقوق الحُمُس وقالوا : "نحن بنو إبراهيم وأهل حرمه وولاة البيت وقُطان مكة وسُكانها ,فليس لأحد من العرب مثل حَقنا ,ولا مثل منزلتنا ,ولا تعرفُ له العرب ما تعرف لنا ,فلا تعظموا شيئا من الحل (الأرض التي تقع خلف الحرم) ما

سقى الله أمواهًا عرفتُ مكانها   جُرابًا ومكلوماً وبدَّر والغمرا

جراب وملكوم وبذر والغمر : أسماء لآبار قديمة بمكة .ابن هشام ,السيرة ,ج١,ص ١٤٨.

وعندما ترك زيد بن حارث عبادة اللات والعزى وغيرها من الأصنام التي ترك عبادتها قبل بعثة الرسول ﷺ قال :

أربا واحدا أم ألف رب   أدين إذا تقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعا   كذلك يفعل الجلد الصبورُ
فلا عُزى أدين ولا ابنتيها   ولا صنمي بني عمرو أزور
فتقوى الله ربكم احفظوها   متى ما تحفظوها لا تبورُ
ترى الأبرار دارهم جنان   وللكفار حامية تفور
وخزي في الحياة وإن يموتوا   يُلاقوا ما تضيق به الصدورُ

راجع ياقوت الحموي ,معجم ,ج٥ ؛ابن حبيب ,المنمق,ص٣١٥ ,حيث يقول : "وكانت هذه الأصنام كلها في بلاد العرب تعبد مع الله عز وجل ". ويقول الله تعالى: ﴿ وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ قُلۡ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ سُبۡحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ (يونس :١٨).ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ ﴾ (الزمر :٣)؛ وعن الذين كانوا على دين إبراهيم- عليه السلام – قبل البعثة ,راجع ابن حبيب ,المنمق,ص١٧٥-١٧٦.

عظموا من الحرم ,فتركوا الوقوف على عرفة والإفاضة منها وهم يعرفون أنها من المشاعر والحج ودين إبراهيم- عليه السلام-,ويرون لسائر العرب أن يقفوا عليها وأن يفيضوا منها ,إلا أنهم قالوا : نحن أهل الحرم فليس ينبغي لنا أن نخرج من الحُرمة , ولا نُعظم غيرها كما نُعظمها . نحن الحُمُس ,والحُمُس من أهل الحرم .ثم جعلوا لمن ولدُوا من العرب من ساكن الحِل والحَرم مثل الذي لهم بولادتهم إياهم"[١].

وهكذا توسعت قريش في ضم العرب إليها من القبائل المحيطة بأن أدخلت أصهارها في الأحمس ,وبهذا تبع زوج القرشية قومها . ومما لاشك فيه أن هذه السياسة الذكية التي اتبعتها قريش جعلت الحرم المكي مُحاطاً بقبائل الحُمس , وجعلوه منطقة سلام أشار إليها القرآن الكريم في سورة العنكبوت (الآية ٦٧) بقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ﴾. لقد أتاحت هذه السياسة فرصة ذهبية لازدهار تجارة مكة.

إذا كان الحرم المكي يتساوى مع بيتي اللات في الطائف والعُزى في نخلة ,فلماذا قام الفرس بزيارته وحج البيت وإهدائهم الأموال

(١) ابن هشام . السيرة ,ج١,ص ٢١٩ ؛ابن حبيب ,المنمق ,ص١٤٣-١٤٦ ؛الحموي ,معجم , ج٥,ص١٨٤.

والجواهر للكعبة "منها غزالان من ذهب وجواهر وسيوف وذهب كثير أهداها ساسان بن بابك[١], ما يدلُّ على معرفة الفرس بمكانة بيت مكة دون غيره من البيوت.

سادساً: ولقد وجَّه أبرهة الحبشي حملته من اليمن لتدمير الكعبة مُقسماً "ليسِيرنّ إلى البيت حتى يهدمَه"[٢],ليتجه حج العرب إلى كنيسة القليس التي بناها في نجران بدلا من مكة[٣]. يذكر ابن الأثير والأزرقي أن قريشا أنشأت نظام الحماسة بعد محاولة أبرهة الفاشلة ,حتى تتمكن من تنظيم الدفاع عن الحرم المكي,والاستفادة

---

(١) المسعودي,أبو علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦هجرية /٩٥٧-٩٥٨ م) .مروج الذهب ومعادن الجوهر , تحقيق شارل بلاّ,بيروت ١٩٦٦ ,ج١ ,ص٢٤٢.

(٢) ابن هشام . السيرة ,ج١ ,ص٤٣ ؛الأزرقي ,مكة ,ص١٣٧ ؛الطبري ,تاريخ ,ج٢ ,ص١٣٠ وما يليها .

(٣) يذكر ابن الكلبي أن أبرهة الأشرم قد بنى بصنعاء كنيسة سماها القَلِيسَ بالرخام وجيد الخشب المذهبِ , وكتب إلى ملك الحبشة يقول: "إني قد بنيت لك كنيسة لم يبن مثلها أحد قط ,ولست تاركا العرب حتى أصرف حجهم عن بيتهم الذي يَحُجُّونَ إليه ",ابن الكلبي ,الأصنام ,ص ٥٩ . اشتق اسم الكُلَّيسْ من الاصطلاح الإغريقي إكليسيا Ecclesia=Έκκλησία ويعني مجلس الشعب في بلاد الإغريق منذ العصر الهومري-القرن التاسع أو الثامن ق.م.- ؛والمعروف أن الحبشة كانت تدين بالمسيحية على المذهب الأرثوذكسي ,وكانت كنيستها تابعة لكنيسة الإسكندرية في مصر حتى رحيل آخر أباطرتها الإمبراطور هيلاسيلاسى في الثلث الأخير من القرن العشرين ,.عن الاصطلاح الإغريقي راجع :

Liddell(H.G.) and Scott(R.),A Greek English Lexicon,Oxfrod ١٩٦٨,p.٥٠٩.

من الشهرة التي اكتسبتها بين العرب بعد فشل تلك الحملة[١]. هكذا جعلت الحماسة من الحرم نواة لالتفاف عدد كبير من القبائل حول القيادة القرشية ,فاجتمع التجار في مكة وحولها آمنين ,بل لقد تطوع بعض العرب للدفاع عن حرمها مثلما فعل صَلصَل بن أوس التميمي[٢] ,وزُهير بن جناب الكلبي حين قام بتحطيم البيت الذي شيدته غطفان بديلا لها عن الحرم المكي[٣].

سابعاً : بدأت كرون Crone تنحى منحى آخر فقدمت هذه المرة نصا ذكره نونوسوس Nonnossus في كتاب له مفقود ورد ذكره لدى فوتيوس photius في مؤلفه Bibliotheque [٤],يقول النص :"إن غالبية العرب وهؤلاء الفينيقيين ومن وراءهم ووراء جبال تاورن (Tauren) كان لديهم مكان مقدس لمعبود لا أعرفه , وكانوا يجتمعون فيه مرتين كل العام , وفيما يخص هذه التجمعات

(١) ابن الأثير ,الكامل ,ج١ ,ص٤٥١-٢ ؛ الأزرقي ,مكة ,ص١٤٩.

(٢) ابن الكلبي ,الأصنام ,ص٥٨.

(٣) يذكر ابن الكلبي :"بَنَى ظالم بن أسعد بن ربيعة بيتاً ببلاد غطفان سماه بُسّاً,فأخذ حجرا من الصفا وحجرا من المروة فبني عليه فسماه الصفا والمروة ,وكانت تعبده غطفان ومن يليها ,فأغار زهير بن جناب في الجاهليــة على بلاد غطفان ,فهدم البيت وما حوله ",الأصنام ,ص ٧٠ ؛ راجع أيضا ابن حبيب , المحبر, ص ٣١٦ .

(٤) Nonnosus cited by Photius ,Bibliotheque ,Editded and translated by R. Henery ,Paris ١٩٥٩,vol.i,٥(f),cited in Crone (P.),op. Cit.,p.١٩٧,no.١٢٧.

كان اجتماعهم الأول يستمر لمدة شهر حتى منتصف الربيع ......أما الاجتماع الثاني فكانت مدته شهرين .... وأثناء هذه التجمعات كانوا يعيشون في سلام كامل مع بعضهم , ومع كل الشعوب التي تعيش في بلادهم . ويقولون ...إنه حتى الحيوانات المتوحشة تعيش في ســـــلام مع البشر وأكثر من هذا مع بعضهم .... ويبدو أن المقصود بجبل طاورين (Tauren) هو جبل طيئ (Tayyi). وإذا كان الأمر كذلك فيبدو أن هذا المعبد كان يقع فى الشمال ,وتنوه أنه قد سبق لإبيفانيس (Epiphanius) أن لاحظ وجود شهر حجة البيت (Hijjatalbayt-Aggathalbaeith) من قبل ما يدل على وجود مركز يقع في الشمال .... وهذا يعني في رأيها["أنه يمكن وجود العديد من مراكز الحج في بلاد العرب قبل الإسلام ,ولكننا إذا اخترنا عدم مضاهاة حرم نونوسوس بأسواق الحجيج ,فإننا ينبغي أن نسلم بأن هذا الهيكل الذي كان له أهمية كبرى في بلاد العرب قد اختفى دون أن يترك وراءه أثرا , أيا كان ما ذكرته الرواية . أما إذا اخترنا عدم مطابقته مع الهيكل الأول للإسلام فسوف يصبح مثل هذا الصمت أمرا مريبا إذ إن مزاحمة حرم (Haram) له مثل تلك المكانة لا بد أن يثير الشك فيه "][١].

---

(١) Crone (P.),op. Cit., no.١٢٨,p١٩٧.

بتحليل ظاهر النص نلاحظ أن صاحبه يذكر "أن العرب والفينيقيين ومَن وراء جبل طاورين ",وترجح كرون أن جبل طاورين هو جبل طيء,ولما كانت طيىء تقع في نجد ؛ فذلك يعني أن الحجاز وبيتها الحرام من بين المناطق التي تقع خلف هذه الجبال ,ويعزز الافتراض بأن المقصود بالبيت الذي أشارت إليه سابقا أنه بيت مكة . وتبلغ مدة زيارة المعبد ثلاثة أشهر منفصلة (الحج شهران هما ذو القعدة وذو الحجة , والعمرة في شهر رجب).إضافة إلى ما تقدم فما هو البيت الذي كانت تؤمه الشعوب المختلفة في المنطقة وتُحرم فيه خلال مدة زيارته ,وتعيش في سلام غير البيت الحرام في مكة ؟,ولعل في إشارة إبيفانيس لشهر حجة البيت ما يرجح الافتراض أن المقصود بهذه الإشارة هو البيت الحرام في مكة الذي يخصص للحج إليه أيام معلومة من شهر ذي الحجة . ولم تذكر جميع المصادر الإسلامية من قريب أو بعيد بيتا آخر حاز ما لبيت مكة من مكانة في نفوس العرب جميعًا ,في حين أن تلك المصادر نفسها قد ذكرت جميع الأصنام المحلية التي عبدها العرب ,والبيوت التي خُصصت لبعضها كما سبق توضيحه , ما يبعد شبه إخفاء المصادر الإسلامية لبيت آخر كان موجودا في المنطقة ينافس أو يقف على قدم المساواة مع بيت مكة . ويؤكد هذا القول أن أياً من المصادر الكلاسيكية (أي اليونانية واللاتينية)غير نونوسوس لم يذكر

لنا وجود مثل هذا البيت الذي تضعه كرون في الشمال ,وهي بوضعها له على هذا النحو تناقض تفسيرها لجبل طاورن الذي تضاهيه بجبل طيء الذي يقع في هضبة نجد .

ولكي تؤكد منحاها,قامت بذكر بعض الإشارات في المصادر الإسلامية التي تشير إلى وجود الأشجار والعُشب في مكة ,واتخذت من ذلك دليلا على أن محيط البيت المقدس يجب أن يكون في مُحيط خَصيب غير مُحيط مكة الصحراوي. مُغفلة حقيقة جغرافية مهمة ذكرها الأصفهاني وهي أن موسم نزول الأمطار في مكة (كما هو الوضع الآن) قد يبلغ من غزارتها -عندما تأتي على شكل سيول -أن تقوم بهدم البيوت وتخريب الطرق ,ومن أجل ذلك فإن توفر العشب يصبح أمرا منطقيا , ومن المنطق أن تنمو فيها بعض الأشجار التي تتلاءم مع المناخ ؛ وعلى الرغم من هذا فإن النطاق العشبي الضئيل لا يُخرِج مكة من دائرة النطاق الصحراوي العام الذي تنتمي إليه وتقع فيه(١).

ثامناً: لم تكتفِ كرون Crone بالادعاء أن المقصود بالحج

---

(١) Crone (P.),op. Cit., no.١٣٤,pp,١٩٨-١٩٩. ؛ وعن الغطاء النباتي لمنطقة الحرم المكي عبر العصور حتى الآن راجع رسالة الدكتوراه المنشورة والمميزة التي قدمتها : عواطف بنت الشريف شجاع الحارثي إلى جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية وموضوعها : البيئة الحيوية لمنطقة الحرم المكي , دراسة في الجغرافيا الحيوية ,سلسلة الرسائل الجامعية رقم ٧١,الرياض١٤٢٧/٢٠٠٦ .

في العصر الجاهلي كان زيارة الأسواق الثلاثة, بل حاولت تقزيم دور قريش التجاري ودورها المميز في الأسواق الثلاثة إذ تقول : ["أن مكة لم تكن سوقا للحج ,ولدينا قائمة شهيرة تضمنت أسماء ستة عشر من الأسواق ذات الأهمية الكبيرة في بلاد العرب قبل الإسلام ,ولم يأت ذكر لمكة في أي من عبارات القائمة ".كما ترى "أن القصص الخاصة بحروب الفجار لم يكن لها علاقة بالشؤون التجارية ,وعندما جلسوا في سوق عكاظ فمرجعه أن الأفراد اعتادوا الذهاب والاجتماع هناك ,وليس لأن صفقات التجارة كانت تعقد فيه"].وتختم الحديث عن حرب الفَجار بقولها :["وكانت هذه الحروب أنموذجا للحروب التي تدور بين القبائل ,ولم تكن تهدف لإحراز التفوق التجاري .وإذا كان المقصود هو إحراز ذلك التفوق فيمكن القول بأن قريشا تمكنت من تحقيقه ولكن بصعوبة بالغة "][(١)].

إن ما تذكره كرون من أن قائمة الأسواق التي ذكرها ابن حبيب والمرزوقي لم يأت فيها ذكر لسوق في مكة تحديدا مخالف للحقيقة ؛ إذ نلاحظ أن ثلاثة من هذه الأسواق وهي مجنة وعكاظ وذو المجاز كانت على مقربة شديدة من مكة كما لو كانت أسواقا لها , فسوق مجنة يبعد عن مكة ثلاثة أميال ؛وذو المجاز :هو موضع بمكة

---

(١) راجع النصوص الثلاثة المشار إليها في الصفحات التالية على التوالي :
Crone (P.),op. Cit.,pp. ١٧٠,١٤٥,١٤٧.

ناحية كبكب وهو من ديار هذيل ؛ أما عكاظ وهي "أعظم أسواق العرب "كما تذكر الرواية فقد كان بالقرب من الطائف في ضاحية من ضواحيها ,هذا على الرغم من أن مساحة السوق كانت تتمدد وتنكمش طبقا لظروف الازدحام فيه .إن محاولة استغلال عدم معرفة القارئ بالمسافة بين الأسواق الثلاثة هنا واضحة للإيحاء له بعدم وجود ذكر لمكة في هذه الأسواق أو غيرها على غير الحقيقة , لقد كانت قريش ملء السمع والبصر في هذه الأسواق وخصوصا في سوق عكاظ الذي اقترن بقريش وسمي " بعكاظ قريش " كما يذكر ابن حبيب[(١)] , ويذكر المرزوقي "إن عكاظ من أعظم أسواق العرب ,وكانت قريش تنزلها ,وهوازن ,وغطفان ,وخزاعة , فالأحابيش ,وعضل والمصطلق وطوائف من أفناء العرب .... ولم يكن فيها عِشور ولا خفارة وكانت فيها أشياء ليست في أسواق العرب "[(٢)].

أما قولها :[" إن القصص الخاصة بحروب الفجار لم يكن لها علاقة بالشؤون التجارية ,وعندما جلسوا في سوق عكاظ فمرجعه

(١) ابن حبيب ,المحبر ,ص ٢٤٧ ؛ ابن عساكر ,ثقة الدين أبو القاسم علي بن الحسين (ت٥٧١ هجرية),تهذيب تاريخ دمشق الكبير ,ترتيب عبد القادر بدران,بيروت ١٣٩٩هجرية/١٩٧٩م , ص ٤,ص٤١٧.

(٢) المرزوقي ,الأزمنة والأمكنة,ج٢,ص ١٦٥ ؛ابن حبيب المحبر ص٢٦٣-٢٦٨ ؛راجع أيضا الأفغاني, أسواق العرب في الجاهلية والإسلام , ذكر فيها قوائم بجميع أسماء الأسواق العربية المذكورة في المصادر الإسلامية ,القاهرة ١٤١٣هـ-١٩٩٣م,ص٢١٧-٢٢٦,

أن الأفراد اعتادوا الذهاب والاجتماع هناك ,وليس لأن صفقات التجارة كانت تعقد فيه"].فنلاحظ أنها أغفلت أن السبب الرئيس للذهاب إلى سوق عكاظ كان في المقام الأول من أجل التجارة,وكانت عكاظ من أشهر الأسواق العربية التجارية ,وكان يوجد فيها بضائع مختلفة :تضم البرود اليمانية المخططة والموشاة والمسيرة بخطوط الحرير ,والزعفران والأصبغة والعلك والخضاب والبخور والعقيق والمُر والتوابل والطيب وتلك كانت البضائع القادمة من اليمن , أما العمانيون فنجد عندهم اللؤلؤ من البحرين وتمور هجر وجواهرها . وكان أهل الشام يحضرون الزيوت والزبيب والدقيق والقمح وألوان وأرجوان صيدا وصور, وزيت السمسم والمصوغات الذهبية والفضية من البتراء والجِفاء من عسقلان.وكان الأعراب يبيعون الصوف والشعر والدهون والوبر والأغنام والإبل والجلود المدبوغة والأحذية .ولم تكن السوق تخلو من عطارين يحملون عطارتهم والأدوية والأعشاب والمِسك والطيوب والعطور ,وبياطرة يعالجون الدواب ,ونجارين وحدادين وبزازين يبيعون الثياب والسلاح ,واشتهرت في السوق الرماح الخطية المصنوعة في بلدة الخط على ساحل البحرين , والرماح الردينية , وكانت تصنعها امرأة من البحرين اسمها ردينة ,أما أشهر الخمور في السوق فكانت

تلك الآتية من بُصرى- البتراء - وغزة والأندرين التي ذكرها عمرو بن كلثوم في افتتاحية ما تبقى لنا من معلقته ,وفي السنوات الأخيرة التي سبقت الإسلام ازدهرت تجارة الرقيق الحبشي والقين الشامية. وكانت بضاعة السوق معفاة من العشور والمكوس ,وكانت لديها شبه محكمة تجارية ,خصوصا بعد حلف الفضول وتعاظم نفوذ مكة والحمس ,إثر حروب الفجار وكان القضاء فيها لهوازن قبل الفجار ,وصار لكنانة بعدها ,وقد أشاعت عدالة المحكمة ,وأمن الشهر الحرام الاطمئنان التام بين قُصاد السوق ,وكان ازدهارها هذا الازدهار منطقيا ومفترضًا .كما كان للسوق كُتابٌ عدولٌ يقومون بكتابة العقود والمعاملات .وفيها وسائل الإعلان للتشهير بمنتهكي العهود أو بمرتكبي أعمال الغش أو التدليس ,وكان يحضر السوق سائر قبائل العرب ,وعرب الشام والعراق والخليج واليمن والبلاد المجاورة , فكانت تكتظ بالناس وتضيق على سعتها بهم ,فيكسب التجار مالا يكسبون مثله في أي سوق آخر . ويذكر المرزوقي أنه لما "دخلت سنة خمس وثلاثين من عام الفيل وحضر السوق من نزار اليمن ما لم يعرف أنه حضر مثله في سائر السنين ,فباع الناس كل ما كان معهم من عروض تجارية " . وكان لكل قوم منازلهم ومضاربهم , واختلطوا وامتزجوا معا في بحث شتى الأمور من تجارية

وأدبية [١].

ومن الواضح مما تقدم أن المحور الرئيس الذي دفع العرب للاجتماع في عكاظ كان يدور حول التجارة ويلتف حولها, ولم يكن وجودهم هناك لمجرد الاجتماع والحديث والمسامرة .إضافة إلى إغفال المستشرقة أن حرب الفجار الأولى التي دارت في ثلاثة أيام ,وفي حرب الفجار الثانية التي وقعت أحداثها في خمسة أيام ,كانت قريش وحلفاؤهم هم المتحرشون والبادئون فيها, ما يوحي بأن قريشا هي التي حرضت عليها . ويقول ابن هشام في السيرة : "وكان الذي هاجمها أن عروة الرحّال .... أجار لطيمة للنعمان بن المنذر فقال له البَرّاض .... أتجيرها على كنانة ؟ فأجاب بنعم ,وعلى الخلق ....فأتى آتٍ قريشا فقال : إن البراض قد قتل عروة وهم في الشهر الحرام بعكاظ ,فارتحلوا وهوازن لا تشعر, ثم بلغهم الخبر فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم ,فاقتتلوا حتى جاء الليل ودخلوا الحرم , فأمسكت عليهم هوازن "[٢].

---

(١) المرزوقي ,الأزمنة ,ج٢,ص١٦٨-٩ ؛ ويقول عمرة بن كلثوم عن بلدة الأندرين في معلقته :

ألا هبي بصحنك فاصْبحينا وَلا تُبقي خُمُورَ الأندَرِينا

راجع : الزوزني ,عبد الله الحسن بن أحمد,تحقيق محمد الفاضلي ,صيدا — بيروت ، بدون تاريخ , ص١٧١ .

(٢) ابن هشام ,ج١,ص١٩٩-٢٠١ ؛ سحاب , فكتور,إيلاف قريش ,رحلة الشتاء والصيف ,بيروت ١٩٩٢ ,ص ٢١٤ -٢٢٢.

كانت هذه الحروب على ما يبدو تمثل نزاعا بين قريش وهوازن على النفوذ التجاري ,خصوصا وأن سوق عكاظ يقام في أرض هوازن .وهو الانتصار الذي تحاول كرون أن تقلل من شأنه وتعترف به بصعوبة بالغة في قولها "إن قريشا تمكنت من تحقيقه ولكن بصعوبة بالغة ",وبالرغم من ذلك الاعتراف فقد قامت بنفيه مرة أخرى بقولها "إن حقيقة كون إحدى هذه الفترات قد حدث فيها اعتداء على إحدى القوافل فهو لا يعني أن نربط بينها وبين مغزى اقتصادي أو سياسي ...إننا نصنع تاريخاً اقتصاديا مزيفا إذا قمنا بتضخيم مثل هذه المنافسات وتحويلها لصراع طويل يخدم أهدافا تجارية أو سياسية "(١). كما تغفل تماما إحدى نتائج انتصار قريش في حروب الفجار,وهي تلك الحملة التي أعدها النعمان بن المنذر ضد بني عامر بن صَعصَعة وهم أحد بطون هوازن وكانوا من الحُمس الذين انتصروا لقريش في حروب الفجار وساهموا في هزيمة قبيلتهم. ويلاحظ القارئ أنها لم تذكر كلمة واحدة عن واقعة ذي قار التي توضح بجلاء الارتباط بين التنافس التجاري والعلاقات بين العرب والفرس . ويذكر ابن حبيب "وكان أمرهم أن كسرى بعث لطيمة إلى عكاظ فتعرضت له بنو تميم وبنو شيبان فاقتطعوها ,فبعث كسرى

---

(١) Crone,Op .Cit .,p.١٤٧.

إليهم خيلا واستعمل عليهم وهرز فخرجوا حتى لقيتهم تميم وشيبان بذي قار فقتلوا فارسا واقتطعوها"[١].

كانت سوق عكاظ لقبيلة هوازن المرهوبة الجانب ,وظلت كذلك بلا اعتراض من جانب قريش عليها حتى حاولت الحيرة أن تتجنب تسيير قوافلها عبر مكة ,وأن تسيرها عبر الطائف إليها مباشرة. عندئذ فقط حدثت حرب الفجار وسيطرت مكة على عكاظ .

تاسعاً : يتضح من مناقشـــة الموضوع بأن مكة وبيتها المقدس كانت كعبة للعرب , فيها نُصبت أصنامهم ,ولم يناظرها بيت آخر في طول الجزيرة وعرضها , حتى القليس التي بناها أبرهة الحبشي في اليمن لجذب الحجيج إليها بدلا من مكة .لقد ازدادت حماسة العرب لبيتهم مع تعاظم نفـــوذ قريش بعد فشل حملة أبرهة من جهة, وتزايد نفوذها التجاري ونمو مكاسبهم منها من جهة أخرى. فحج العرب كان يتجه إلى مكة : يبدأ منها وينتهي إليها ؛ أما المواسم فهي الأسواق التجارية التي كانوا يجتمعون فيها في عكاظ وذي المجاز ومِجنّة القريبة من مكة ,والتي كانوا فيها يتاجرون ولم تكن كما ادعت بأنها هي التي "تعد أماكن الحج قبل الإسلام ",وليس في الربط بين التجارة والتدين والحج في مكة ما يعاب على العرب ,فقد

---

(١) ابن حبيب , المنمق ص٣٢٠ .

ارتبطت مواسم الألعاب الأولمبية في بلاد الإغريق منذ دورتها الأولى عام ٧٧٦ق.م. بالمزارات الدينية الكبيرة لديهم وفي مقدمتها معبد الإله زيوسZeus في بلدة أولمبيا (Olympia) بإقليم إيليس(Elis) غرب شبه جزيرة البيلوبونيس (المورة),ومعبد الإله أبوللون(Apollon) ونبوءته في ديلفي(Delphe),والدورة الإثمية في بلدة إثموس (Ishmus) (أي البرذخ) بجوار مدينة كورنثة (Corinth) في وسط بلاد اليونان , وكانت لتكريم الإله بوسيدون (Poseidon) إله البحر الذي ارتبطت به مدينة كورنثة, وأخيرا الدورة النيمية نسبة إلى مدينة نيميا (Nemea) بإقليم أرجوليس(Argolis) في جنوب بلاد اليونان ,وكانت تعقد تكريما لزيوس النيمي[١].

وفي أثناء انعقاد هذه الدورات التي كانت تعقد في أحد المراكز السابقة على التوالي مع بعضها مرة كل عام ,كان هناك اتفاق ضمني أو هدنة مؤقتة مقدسة (έκεχειρία =ekecheiria =cessation of hostilities) بين كل مدن دول بلاد الإغريق ,

(١) The Oxford Classical Dictionary ,Oxford ١٩٥٧, arts: Olympic Games, p.٦٢١; Delphigames, p.٢٦١;Isthmia,p.٤٦١; Nemean Games, p.٦٠١.

وراجع : علي ,عبد اللطيف أحمد,التاريخ اليوناني ,العصر الهيلادي ,ج١ ,(القاهرة: ١٩٧٣),ص ١١٢-١٢٠.

تتوقف فيها جميع الأعمال العدوانية ,فيسود السلام ,وينتقل الإغريق إلى هذه المزارات المقدسة ليس فقط لزيارتها ولعقد المباريات الرياضية ,بل لعرض إنتاجهم الفكري والصناعي . فقد قرأ هيرودوت (أبو التاريخ)في القرن الخامس قبل الميلاد في ديلفي كتابه عن "الحروب الفارسية ",وحمل إليهم فيدياس (Phedias) أجمل الأعمال التي قام بصنعها ,بمعنى آخر كانت أسواق عكاظ تشبه هذه الأسواق من حيث ارتباطها بمكان مقدس ,وتجميعها لسكان المنطقة , وحُرمة الأوقات التي خُصصت لزيارتها ,ولكن لم يَدّعِ أحد ما ادعته كرون من الفصل بين زيارة المعابد وبين الأسواق التي– كانت تعقد فيها ومن حولها .

المحور الثالث

دور قريش في تجارة الشرق العالمية

تبدأ كرون مناقشة موضوع التجارة بقولها :[" ينبغي علينا أن نبدأ الحديث بالأدلة التي توضح الأماكن التي كان يعمل بها تجار مكة .وتذكر لنا المصادر الأدبية أنهم كانوا يعملون في سوريا والحبشة والعراق ؛ إذ كانوا يربطون بين المناطق الأربعة بشبكة تجارية فريدة .ويرجع هذا القول لما ذكره ابن الكلبي في قصة الإيلاف التي كانت تسير على النحو الآتي : "كانت تجارة مكة محلية ؛ إذ كان التجار العرب هم وحدهم الذين يقومون بإحضار البضائع إلى مكة ,ثم كانوا يقومون ببيع جزء منها في مكة ,وجزء آخر كانوا يتاجرون فيه بين جيرانهم , وهكذا كانت تجري الأمور حتى قام هاشم وهو الجد الأكبر لمحمد (ﷺ) بزيارة سوريا ومنها جذب إليه أنظار الإمبراطور البيزنطي بطهي الثريد ,وهو نوع من أنواع الطعام لم يكن معروفا لغير العرب .وعندما أصبح صديقا للإمبراطور أغراه بأن يمنح قريشا الإذن ببيع جلود الحجاز وملابسها في سوريا ؛ نظرا لرخص ثمنها بالنسبة للسوريين . ثم عاد إلى مكة بعد أن عقد معاهدات مع القبائل التي كانت في طريقه , وعرفت هذه الاتفاقات بأنها إيلافات, ومُنحت قريش بمقتضاها حق المرور الآمن في مناطق تلك القبائل ,

وحصلت قريش في مقابلها على حق تمثيل تلك القبائل : بأن تقوم (قريش) بجمع بضائعها وهي في طريقها إلى سوريا, ثم تقوم بتسليم القبائل ثمن ما حصلت عليه في طريق عودتها.صاحب هاشم القافلة الأولى إلى سوريا حتى يرى ما تم إنجازه من الاتفاقات التي عقدها , ولكي يرسخ قدم قريش في المدن والقرى السورية ,وتوفي في غزة أثناء هذه الرحلة .ثم قام إخوته الثلاثة ,بعقد معاهدات مماثلة مع حكام فارس واليمن والحبشة ,مكنت قريشا من أن تنقل تجارتها بأمان ,كذلك عقدوا معاهدات مع القبائل الواقعة على الطريق , ما سهل لهم السفر إلى البلاد المذكورة بدون خوف .وقد ماتوا جميعا في الأماكن التي كانت ترتبط بتجارتهم ,وبفضل هاشم وإخوته تمكن أهل مكة من تحقيق ثروتهم "][1].

وبعد أن تستعرض كرون بعض – وليس كل - ما جاء في المصادر الإسلامية التي تسميها "القصص التي رويت "تقول :["إن مثل تلك القصص التي تنسج دونما اعتبار للحقيقة لا يمكن استخدامها لإعادة كتابة تاريخ الماضي ؛لأنها لا معنى لها ؛لذلك ينبغي علينا أن نرفض تاريخ بداية ونهاية تجارة مكة الدولية .وإذا افترضنا جدلا أن هناك بعض الحقائق التاريخية خلف هذه الروايات

---

(١) Crone,op.cit.,p. ١٠٩-١١٠.

– أو بمعنى أصح ربما خلف واحدة منها– فأي واحدة نقبل وأي واحدة نرفض ,بمعنى أنه من الصعوبة بمكان معرفة أيها كانت هي الحقيقة أو أقرب إليها "][١].

وتواصل المستشرقة قولها :["كانت تجارة مكة تجارة محلية ,بمعنى أن بضائعها كانت عربية الأصل ,ويتم استهلاكها في بلاد العرب ذاتها أو مع الخارج مباشرة,وصورت بعض المصادر معاملات المكيين على أنها تجارة تصدير حملوا في مقابلها سبائك الفضة في طريق عودتهم ,بينما صورتهما مصادر أخرى على العكس من ذلك لكونها كانت تجارة استيراد وفيها حملوا سبائك الفضة إلى سوريا , ولكن أيا كانت طبيعة دور سبائك الفضة في صناعتهم , فإن أغلب المصادر تصور المكيين على أنهم يقومون ببيع البضائع في سوريا وأماكن أخرى بقصد العودة ببضائع مقابلة في طريق عودتهم. وفي حقيقة الأمر فإننا نتساءل عن البضائع التي كانوا يقومون ببيعها في الحبشة فيما عدا الجلود,ولا نعرف نوع البضائع التي كانوا يقومون ببيعها في اليمن فيما عدا الحمير .ولذلك ربما كان في استطاعتنا أن نسقط الحبشة من تجارة مكة (وأيضا قريش),ولكن لدينا معلومات أكبر عن صفقات قريش مع اليمن ,كذلك فإننا نعرف أنهم باعوا في

(١) Crone.Op.Cit.,p.١٣٨ .

سوريا الجلود الخام والإهاب وبضائع جلدية مختلفة , وملابس وربما أيضا الحيوانات والسمن في إحدى المناسبات إضافة إلى العطور .أما في رحلة العودة فتقول إنهم استوردوا من سوريا ومصر الملابس الفاخرة والثياب والأسلحة والحبوب وربما الزيت والفاكهة والعطور في إحدى المناسبات ,إضافة إلى السيوف الهندية ,وربما بعض المواد الغذائية ,وتصنف هذه البضائع السابقة من وجهة نظر العصر الحديث على أنها ما يزيد عن حاجة الاستهلاك المحلي لمجتمع الرعاة وسكان الجبال .

ويمكن للمرء أن يتعرف بسهولة على نوع البضائع التي كان يحملها تجار مكة في طريق عودتهم من رحلاتهم .فقد عرفنا أنهم استوردوا من سوريا ومصر الملابس الفاخرة والثياب والأسلحة والحبوب وربما الزيت والفاكهة والعطور في إحدى المناسبات . وحصلوا بالمثل من اليمن على الملابس الفاخرة والثياب ,وأخيرا على العبيد من الحبشة ,إضافة إلى السيوف الهندية ,وربما بعض المواد الغذائية .ومما لاشك فيه أنهم أحضروا من هناك العطور التي كانوا يقومون ببيعها أحيانا في الخارج , ولما كان من غير المعروف نوعية المتاجر التي كانوا يقومون بإحضارها للحبشة , لذلك يجب إسقاطها من تجارة مكة . إن مثل هذه المعلومات لا تترك مجالا للشك في أن

وارداتهم كانت تمثل احتياجاتهم ,وبضائع الترف المحدودة التي كان سكان الجزيرة العربية يحصلون عليها عادة من حافة الهلال الخصيب وبعض الأماكن الأخرى ,ولكن ليست هي بضائع الترف التي يذكر لامينس (Lammens) أنهم كانوا يجهزونها ,لكي يقوموا بالتجارة فيها مع الخارج"][(١)] .

بعد أن ذكرت كرون ما وافقها من المصادر الإسلامية تناقش الموضوع وتخرج من دراستها بنفي وجود تجارة نقل دولية لقريش بعد أن تكون قد اقتربت منها- كما سنوضح أدناه - لتقفز إلى هدفها الحقيقي وهو معارضة ما جاء في صورة الإيلاف ؛ لذلك اقتطعت من المصادر ما يمكن أن يؤيد رأيها تاركة وراءها جميع المصادر الأخرى التي تخالفها, والتي سبق واعتمد عليها الباحثون في الشرق والغرب على السواء للتأكيد على تجارة قريش العالمية .مدعية أن أقدم المصادر تعد أفضلها حتى توحي إلى القارئ بحجة دعواها وحفاظها على قواعد البحث التاريخي, وسوف نقوم هنا بتفنيد ما تناولته كرون فيما يخص تجارة قريش مع سوريا والحيرة واليمن والحبشة كل على حدة على التوالي .

---

(١) . Crone.Op.Cit.,p.١٤٩-١٥٩ ؛ سحاب,مرجع السابق .

التجارة مع سوريا :

أولاً : تستند كرون في مناقشتها في هذا الموضوع على أنه :["جاء الوصف التقليدي للطريق بين مكة وسوريا , على أنه يمثل نهاية طريق البخور الشمالي , وذكر المتخصصون في العصر الحديث أن الغساسنة كانوا يسيطرون عليه ,ثم قامت قريش بإبعادهم عنه . ويذكر سيمون (Simon) أن البند الخامس من معاهدة السلام بين فارس وبيزنطة عام ٥٦١ م.تضمنت برهانا قاطعا على متابعة الغساسنة لنشاطهم التجاري ,وتحكمهم في الجزء السوري من طريق البخور .... وأيا كان ما ذكرته المعاهدة عن نشاط الغساسنة في ميدان التجارة الشرقية الغربية فإنها لم تذكر شيئا عن نشاطهم التجاري في بلاد العرب "[١] .

ونلاحظ مما ذكرته سابقا أنها تعتمد على "عدم ذكر العرب" صراحة في المعاهدة التي أشارت إليها, كدليل على عدم وجود تجارة شمالية جنوبية مع سوريا في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي . حقيقة أن المادة الخامسة في المعاهدة السابقة كانت خاصة بتنظيم التجارة الشرقية الغربية بين اللخميين والغساسنة – وكلاء كل من الفرس والروم البيزنطيين – وجيرانهم ,وأنها لم

(١) . Crone.Op.Cit.,p.١٣٨

يكن لها علاقة مباشرة بالتجارة الشمالية الجنوبية ,لكن إذا قمنا بإلقاء نظرة فاحصة يمكن من خلالها رؤية الخيوط الخفية التي تربط الأحداث مع بعضها على النحو الآتي :

- إن هذه المادة تمهد السبيل إلى فهم بعض جوانب الأوضاع الدولية التي ساهمت في انتقال دفة التجارة الشرقية إلى طريق القوافل المكية ,إذ يؤدي تطبيق هذا النص إلى قيام التجار العرب بدفع الضرائب مرتين على بضائعهم :الأولى للفرس ,والثانية للبيزنطيين ,أما في حالة انتقال التجارة إلى الجانب العربي فسوف يتم دفع الضرائب على البضاعة مرة واحدة للبيزنطيين بينما تُحرم منها الخزينة الفارسية .

- إذا كانت المعاهدة "تبرهن على متابعة الغساسنة لنشاطهم التجاري في الجزء السوري من طريق البخور",فكيف وصل البخور أو بمعنى أشمل كيف وصلت البضائع الغربية والشرقية إلى الغساسنة في وقت تقطعت فيه المواصلات بين شمال شرق الجزيرة العربية وشمال غربها بسبب الصراع بين الفرس والروم ؟والإجابة المنطقية أنها وصلتهم برا وبحرا من جنوب بلاد العرب ,وإذا كان الأمر كذلك كما هو في الحقيقة, فَمن الذي كان يمكنه حملها ونقلها برا غير قريش وقوافلها الجرارة؟

• ذكر المعاهدة للعرب صراحة يُعد دليلا على اشتراكهم في تجارة الشرق الدولية وتبرهن على دورهم الرئيس فيها ,وهو الأمر الذي دفع الدولتين الكبيرتين على الاتفاق فيما بينهما لتكبيل وكلائهم (المناذرة والغساسنة) ؛ لعجزهم عن تولي شئون الطرق التجارية اللازمة لتيسير القوافل التجارية من شرق العربية وغربها بعد أن تحولت الحروب بين المناذرة والغساسنة في النصف الثاني من القرن السادس إلى صراع على النفوذ بينهما, خارج نطاق حاجات القوتين الكبيرتين ومصالحهما ما أتاح فرصة ذهبية أمام قوافل قريش وحركتها .

ثانياً : تحاول الباحثة أن تنفي وتلغي ما أجمعت عليه المصادر التاريخية عن حياة الرسول (ﷺ) وذهابه إلى الشام للمرة الأولى عندما كان صبيا في صحبة عمه أبي طالب ,والثانية في تجارة للسيدة خديجة – رضي الله عنها – معتمدة على أن بعض المصادر السورية التي تتحدث عن تاريخ سوريا لم تذكر شيئا من أن الرسول (ﷺ)" لم يكن تاجــرا من تجارهم,أو أن قريشاً كانوا كذلك ,أو أن محمدا كان واحدا منهم "[١]. بمعنى أنها ألغت جميع المصادر الإسلامية – التي تعد مصادر من الدرجة الأولى وليست ثانوية كما ذكرت –

---

(١) Crone.Op.Cit.,p.١١٤.

والـتي تـشير إلى هـذا الموضـوع وتؤكـد عليـه بـلا اسـتثناء ؛ ويكفـي القارئ أن يختار أي مصدر من المصادر الإسلامية الـتي تتحـدث عـن حيـاة الرسـول (ﷺ) ليتأكـد مـن هـذه الحقيقـة الـتي تنفيهـا لمجـرد أن المصدرين البيزنطيين التي استخدمتهما لم يـرد فيهـا ذكـر للرسـول في مطلع شبابه ليكتشف أن الحقيقة على عكس ما قدمت .

ثالثاً : تجمع الروايات الخاصة بِسُورةِ قريش على أن هاشماً هـو الذي قام بوضع حجر الأساس في تجارة قـريش الدوليـة ؛ وهـو أمـر منطقي نظرا لحاجة بيزنطة إلى بديل من الخطوط التجارية التي كانت تعـبر أراضـي ومنـاطق نفـوذ الدولـة الفارسـية في الطريـق التجـاري العرضي الذي كان يعبر مـن الخليج إلى سـوريا في تلـك المرحلـة مـن الصراع الذي كان دائرا بينهما .ثم قام إخوتـــه الثلاثة بعقد إيلافـات – ويعني تأمين بغير حلف – مع الحيرة والحبشة والـيمن كـل واحـد مـنهم في الـسوق الـتي كـان لـه خـبرة بالعمـل فيـه ؛ لأن تجـارة تلـك المنـاطق لم تكـن خاضـعة لحـسابات الحـرب والـسلم علـى نحـو مباشر,نظرا لسياسة الحياد الـتي التزمـت بهـا قـريش.ومـع ذلـك لـيس متوقعـا ولا مرجحـا أن تكـون قـريش قـد خططـت للمـشروع بكـل تفاصيله جملة واحدة ,وأوفدت رسلها كلٌّ إلى جهـة في المهمـة ذاتهـا ,بل من الأرجح أن هاشماً فكر في هـذا المـشروع ونجـح فيـه,ولمـا رأت

قريش نجاح الفكرة عملت على توسيع نطاق تجارتها ,ووفد إخوة هاشم كل إلى المكان الذي اعتاد التجارة فيه لعقد العقود ,بمعنى أن الإيلاف لم ينشأ دفعة واحدة ,لكنه امتد ليشمل الأسواق الثلاثة الأخرى بالتدريج .

رابعاً : إن الإيلاف يعني تأميناً بغير حلف كما سبق ذكره ,أي إجازة مرور تجارة قريش مع القبائل التي تمر قافلتها في أراضيهم ,مقابل أن تحمل لهم قريش بضائعهم إلى أسواق الشام ,وترد عليهم رأس مالهم مع الأرباح في طريق عودتها, مقابل تأمين هذه القبائل لقوافل قريش في مناطقها ؛ وهكذا أصبحت المصلحة أفضل ضمان للعهود ,وهذه العهود هي التي أشار إليها القرآن الكريم في محكم آياته بكلمة "إيلاف " , ليست حلفا بين متعاقدين ,ولكنها إجازة للتجارة ,وهو الأمر الذي يُفسر عقد قريش لها بين طرفين متنازعين وأعني فارس وبيزنطة ,وقد سبق لإمارة تدمر(Palmyra) أن تعاملت تجاريا في نقل المتاجر الشرقية والعربية بين الفرس والروم,وكان الصراع قائما بينهما حتى حوالي منتصف القرن الثالث عندما قررت تدمر التحول النهائي إلى جانب الرومان[١] .

(١) عن الدور الذي لعبته تدمر في التجارة الشرقية بين الفرس والروم راجع : الروبي , آمال محمد,مصر في عصر الرومان,ص١٤١– ١٤٧.

خامساً: اقتربت كرون من الاعتراف بتجارة مكة الدولية ,ثم عادت وذكرت أنها توقفت في وقت ما قبل ظهور الإسلام[(١)] ,فما هي التجارة التي أوقفوها ,هل تلمح إلى انقطاع الخط التجاري بين فارس والشام ,وسوء الأوضاع في الخط الملاحي في البحر الأحمر , ومعركة بدر وما أدت إليه من توقف القوافل المكية ؟وإذا كانت تلمح إلى ذلك فلماذا لم تصرح ؟ هل تخشى بتصريحها أن تصل إلى الاستنتاج المنطقي ,وهو أن معركة بدر أوقفت تجارة مكة مع الشام ؟ أي أن قريشا كانت لها تجارة مع الشام ؟وإذا لم تكن قريش هي التي حملت تجارتها وتجارة الشرق إلى الشام , فمن إذن الذي نقلها أثناء احتدام النزاع بين فارس وبيزنطة ؟إن الإيلاف الذي أسسه هاشم كان يُجِلهُ العرب وكانوا يعرفون قيمته ,وقد نُسِب إلى مطرود بن كعب الخزاعي قوله فيه[(٢)]:

يأيها الرجُل المحوّلُ رحلَه	هلا نزلت بآل عبد منافِ
هبلتك أُمك لو نزلتَ بحيهم	ضمنوك من جوعٍ ومن إِقرافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقها	والراحلون لرحلةِ الإيلافِ
والمطعِمون إذا الرّياح تناوحت	حتى تغيب الشمسُ في الرجّاف

(١) Crone.Op.Cit.,p.١١٣.

(٢) البلاذري,أحمد بن يحيى بن جعفر بن داود (ت ٣٠٢هجرية /٨٩٢م),أنساب الأشراف,ج١, القاهرة ١٩٥٩,ص ٦٠.

والخالطون غنيهم بفقيرِهـــم حتى يكون فقيرهم كالكــافي

سادســاً : تقـوم كـرون بـذكر سـتة عـشر اسمـا مـن أسمـاء القرشـيين الـذين كـانوا يتاجــرون في الـشام وتحـدد أسمـاء الأمـاكن التي كانوا يقيمون ويتاجرون فيها, وتعترف صراحـــــة من أنه كـان هناك وجـــود لقريش في سوريا أكثر من أي مكان آخر[١] , ما يؤكد على أهميـــــة هذه الـسوق بالنسبة لتجارة قـريش ؛ إلا أنهـا عـلى الـرغم مـن ذلـك تـشكك في تجارة قـريش مـع سـوريا ؛وتـستخدم اصطلاح diasphora=διασπορά =scattering,dispersion [٢] في الإشـارة إلى الأمـاكن الـتي كـان القرشـيون ينزلـون فيهـا في الـشام والذي يعني "الشتات" , على الـرغم مـن أنـه اصـطلاح يـستخدم مـع الذين لا وطن لهم مثل اليهـود أثنـاء بعثرتهم في شتى أنحاء الأرض والغجـر . وقبيلـة قـريش لم تكـن كـذلك سـواء في سـوريا أو الـيمن كما تُلمح الكاتبة .إن استخدام هذا الاصطلاح مع القبيلة التي خرج منهـا خـاتم الأنبيـاء (ﷺ) هـو اسـتخدام في غـير موضـعه,ويكـشف النقـاب في الوقـت نفـسه عـن مـشاعر خاصـة ضـد قبيلـة قـريش (ص٢٠٧) .

---

(١) Crone.Op.Cit.,p.١١٥.

(٢) Crone.Op.Cit.,p.١١٧. ؛ الاصطلاح مأخوذ من اللغة اليونانية ,راجع :
Liddell & Scott ,A Greek English Lexicon ,Oxford ١٩٧٣ ,p.٤١٢.

سابعاً: تنفي كرون ما ذكره الكلبي" في افتراضه من أن الإمبراطور البيزنطي كان يقيم في سوريا"[١] ,عندما التقى به هاشم. الواقع لا يوجد سبب يمنع الإمبراطور من الإقامة في سوريا لبعض الوقت ,لأنها كانت تكون جزءا من أملاك الإمبراطورية البيزنطية التي كان يمكن للإمبراطور أن يزور أي جزء فيها ويقيم فيه لبعض الوقت,مثله في ذلك مثل كثير من الأباطرة الذين تذكرهم المصادر البيزنطية نفسها.ولكن عند الرجوع إلى النص الذي اعتمدت عليه والمذكور في الحاشية [٢]؛ نجد أن ابن حبيب لم يذكر أن الإمبراطور

---

(١) Crone.Op.Cit.,p.١١٢.

(٢) Crone.Op.Cit.,p.٢٠٧,no.٢٦;p.١١٢. ؛ النص الذي ذكره ابن حبيب على النحو الآتي : "يذكر ابن حبيب عن مقابلة هاشم (عمرو)بن عبد مناف مع قيصر الروم أنه قال له "إن لي قوما وهم تجار العرب , فإن رأيت أن تكتب لهم كتاباً تؤمّنهم وتؤمّن تجارتهم فيقدِموا عليك بما يستطرف من أدم الحجاز وثيابه فيكونوا يبيعونه عندكم ,فهو أرخص عليكم ,فكتب له كتابا بأمان من أتى منهم .فأقبل هاشم بذلك الكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب بطريق الشام أخذ من أشرافهم إيلافا . الإيلاف أن يأمنوا عندهم في أرضهم بغير حلف ,وإنما هو أمان الناس وعلى أن قريشا تحمل لهم بضائع فيكفونهم حملانها ويردّون إليهم رأس مالهم وربحهم .فأخذ هاشم الإيلاف ممن بينه وبين الشام حتى قدم مكة ,فأتاهم بأعظم شيء أُتوا به ,فخرجوا بتجارة عظيمة وخرج هاشم يجوزهم ويوفّيهم إيلافهم الذي أخذ لهم من العرب ,فلم يبرح يوفّيهم ذلك ويجمع بينهم وبين أشراف العرب حتى ورد بهم الشام وأحلهم قراها ,فمات في ذلك السفر بغزة بالشام .فلما مات هاشم خرج المطلب بن عبد مناف إلى من أخذ من ملوكهم عهدا لمن تاجر قبلهم من قريش ,ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مر به من العرب ,حتى أتى مكة على مثل ما كان هاشم أخذ ,وكان المطّلب أكبر ولد=

كان يقيم في سوريا ولكنه قال أن هاشًما قابل الإمبراطور في سوريا ,بمعنى أن ما اعترضت عليه جاء من تحميل النص ما ليس موجودا فيه, وكان ينبغي أن توضح للقارئ أنه من افتراضها أو ترجيحها .

ثامناً: فيما يخص نوعية التجارة مع سوريا تذكر فيما يخص تجارة الذهب والفضة مع سوريا تقول: ["تتفق المصادر جميعها على أن أهل مكة سافروا إلى سوريا عن طريق العراق بعد هزيمتهم في موقعة بدر حتى لا يقعوا في يد رجال محمد (ﷺ),ومن أجل ذلك استخدموا مرشدين من رجال القبائل من وسط بلاد العرب وشرقها .ولكن قُدر لهذه المحاولة الفشل ,فقد تمكن رجال محمد (ﷺ) من اعتراض قافلة عند قردة Qarada , وهي نبع للماء يقع في نجد ,والشيء الذي يهمنا في الموضوع هو ما ورد ذكره بأن هذه القافلة كانت تحمل كميات كبيرة من الفضة , وذُكر أنها كانت بقيادة

=عبد مناف وكان يُسمى الفيض .وهلك المطّلب بردمان من اليمن. وخرج عبد شمس بن عبد مناف إلى ملك الحبشة ,فأخذ منه كتابا وعهدا لمن تَجِرَ قبله من قريش ,ثم أخذ الإيلاف ممن بينه وبين العرب حتى بلغ مكة ,وهلك عبد شمس بمكة فقُبر بالحجون ,وكان أكبر من هاشم .وخرج نوفل بن عبد مناف ,وكان أصغر ولد عبد مناف ,وكان لأم وحده ....فخرج إلى العراق , فأخذ عهدا من كسرى لتجار قريش, ثم أقبل يأخذ الإيلاف ممن مّر من العرب ,حتى قدم مكة ,ثم رجع إلى العراق فمات بسَلمان من أرض العراق .وكان بنو عبد مناف هؤلاء أول من رفع الله به قريشاً لم تر العرب مثلهم قط أسمح ولا أحلم ولا أعقل ولا أجمل". المنمق ص ٣١-٣٦ ؛المحبّر,ص ١٦٢,١٦٣.

صفوان بن أمية ,أما ابن إسحاق فقد ذكر أنها كانت بقيادة أبي سفيان, ثم ذهب ابن إسحاق أبعد من ذلك بادعائه أن تجار مكة كانوا يتاجرون دائما في الفضة ,وقد وافق سبرنجر Sprenger على ذلك القول ,ثم وجد بعد ذلك أن هذه الموافقة تمثل مشكلة ".

"كذلك قَبِل لامينز هذا القول دون أن يلاحظ المشكلة التي تنتج عن هذا القبول . ويبدو أن المصادر الأدبية الثانوية — تعني المصادر الإسلامية – قد تناست منذ ذلك التاريخ أمر تجارة الفضة , وكان من الممكن أن نتغاضى عن ذلك لولا أن الفضة تُعد من السلع القليلة ذات القيمة الكبيرة ,ولما كانت المصادر قد قدمت بعض التفاصيل القليلة عنها لذلك لابد من مناقشتها ".

"مما لاشك فيه أن الفضة وجدت في بلاد العرب في الماضي ,أما الفترة التي تهمنا فقد وجدت مناجم الفضة فيها في نجد واليمن اللتين كانت مناجمهما تقع في أيدي الفرس – كما سبق القول – .أما منجم الشمام في نجد والذي كان يتم استخراج النحاس منه أيضا فقد كان عبارة عن مستعمرة يسكنها حوالي ألف أو بضعة آلاف من الزرادشتيين (Zoroastrian),وكانت تفاخر بوجود معبدين للنار فيها .أما منجم الرضراض(Radrad) اليمني في إقليم حمدان فكان يقوم بإدارته من أطلق عليهم اسم "فرس المنجم

"وهم الذين قدموا إليه في العصر الجاهلي وظلوا موجودين هناك حتى القرن التاسع ,وفي أحد الحسابات الخاصة بإحدى القوافل التي قام الحاكم الفارسي لليمن بإرسالها لإمبراطور فارس ,ذكر أنها تحمل سبائك الفضة , وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي جاء فيها ذكر الفضة المحمولة برا إلى العراق , واستمرت القوافل تأتي من العراق في العصر الإسلامي ,ويبدو أن هذه القوافل كانت تحمل بضائع في طريق عودتها من العراق "].

وتعقب كرون على ما قدمته سابقا بقولها :["ولا يمكن من المعلومات التي سبق عرضها أن نشرح الدور الذي لعبه تجار مكة في تجارة الفضة ؛ لأنه لم يكن لديهم مصادرهم الخاصة بهم .كما لم يُذكر أنه كانت توجد مناجم للفضة بالقرب من مكة , إضافة إلى أنه لم تكن لديهم الأخشاب التي تمكنهم من القيام بصهر الفضة, بالإضافة إلى ما تقدم فقد غابت الفضة عن الاتفاق التجاري بين هاشم وإمبراطور بيزنطة ,ولم تقدم هدية ممن هو بمثابة ملك العرب لإمبراطور بيزنطة ,كذلك غابت الفضة عن الهدايا التي قدمها أهل مكة لنجاشي(Negus) الحبشة, والتي كانوا يرجون من ورائها أن يقوم بتسليم المسلمين الذين فروا إلى الحبشة ,كما لم يذكر أنهم بإمكانهم القيام بتصدير هذه السلعة إليه "][(١)] .

(١) Crone.Op.Cit.,p.٨٧-٨٩.؛ أوضح الواقدي مقدار الفضة التي كانت تحملها هذه القافلة بقوله : "وأرسل معه أبو زمعة بثلاثمائة مثقال ذهب ونقر فضة. وبعث معه

ونلاحظ مما ورد ذكره في هذه القضية أن الباحثة أغفلت من الذي كان يستخرج الفضـــة ويتاجر فيها قبل الفرس ؟ وحتى مع عدم ذكر لتفصيلات أكثر عن الفضة - التي كانت ستبدو خارج السياق في الحديث عن أحداث غارة قردة - ؛ فقد كان في استطاعة أهل مكة القيام بشراء الفضة من الفرس ,أو القيام بحملها في قوافل لصالح الفرس, التي وصف الهمداني فضتها بقوله : "فأما معدن الفضة بالرضراض فما لا نظير له "[1] ؛ والمعروف أن قريشاً حرصت في هذه الحقبة دائما على سياسة الحياد في علاقاتها مع كل من فارس وبيزنطة حرصا على مصالحها التجارية .,إضافة إلى أن قريشًا كان يمكنها استيراد الفضة من أماكن أخرى في الجزيرة العربية وحملها في قوافل تجارتها وخصوصا من اليمن التي اشتهرت بها

رجالا من قريش ببضائع وخرج معه عبدالله بن ربيعة وحويطب بن عبد العزى في رجال من قريش .وخرج صفوان بمال كثير ونقر فضة وآنية فضة ووزن ثلاثين ألف درهم ",ج١,ص١٩٨ ؛ والنقرة هي : القطعة المذابة من الذهب والفضة , وقيل ما سبك مجتمعا منهما ,والجمع نقار .ابن منظور(محمد بن مكرم بن علي أحمد الأنصاري الإفريقي المصري ,ت ٧١١هجرية /١٣١١/١٣١٢ م) ,لسان العرب ,ج ١٤ ,بيروت, ص ٢٥٧ . وعن التعدين والصناعات المعدنية في الجزيرة العربية راجع : النعيم ,نورا عبد الله العلي النعيم,الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى القرن الثالث الميلادي ,الرياض ١٤١٢هجرية/١٩٩٢م ,ص ١٦٦-١٧٦ ؛ وعن الأخشاب والصناعات الخشبية راجع,ص ١٨٤-١٨٧.

(١) الهمداني ,صفة جزيرة العرب ,ص٣٦٤ .

وشرق أفريقيا ؛أما تأكيدها على أن قريشاً لم يكن في استطاعتها تصدير هذه السلعة لعدم تمكنهم من صهرها لعدم وجود الأشجار لديهم ,فهي حجة ضعيفة ؛,لأنه إذا كانت مكة تخلو من الأشجار التي تصلح لبناء السفن ,إلا أنه كان يوجد لديها الأشجار التي تصلح لصهر الحديد والفضة ,وإلا كيف كانوا يقومون بتصنيع أدواتهم الحربية وأدوات الحياة اليومية المصنوعة من الحديد والنحاس ؟

وفي الوقت نفسه ما هو وجه العجب في قيام أهل مكة بتصدير الفضة حينا واستيرادها حينا آخر ,لقد كان بإمكانهم تصديرها خاما ,واستيرادها مصنعة ,وهو أمر من أبسط قواعد الاقتصاد على مر العصور. ومما يؤكد وجود الفضة في القوافل القرشية ما جاء في أحد المصادر الإسلامية صراحة التي ذكرتها كرون في الحاشية ,من أن أحد موالي قريش ذهب إلى سوريا أو الحبشة في تجارة حاملا معه قدحا من الفضة , كما قيل إنه كان موشى بالذهب[١] .

تاسعاً : لم يقتصر نفي كرون على حمل قوافل قريش للفضة لأسواق سوريا فقط , بل لقد قامت بالشيء نفسه فيما يخص الذهب فقد قالت :["يذكر الواقدي في تقريره عن غارة قَردة ,أن قافلة

---

(١) Crone.Op.Cit.,p.٨٩,no.١٢.

قريش لم تكن محملة بالفضة فقط ,ولكنها كانت محملة بالذهب أيضا , وتذكر القصة التي تنسب إلى الكلبي أن عمراً حاول تهريب الذهب إلى سوريا ,وذكر في إحدى عبارات هذه القصة أن تجار قريش كانوا يحملون معهم لسوريا الذهب عادة ؛ فهل معنى هذا أن تجار مكة كانوا يدينون بثروتهم لتصدير الذهب إلى الإمبراطورية البيزنطية. ؟والإجابة هي بالنفي على هذا السؤال مرة أخرى "[١].

وتبرر ذلك بقولها : "لا تذكر المصادر اشتغال قريش في مناجم الذهب ولكنها تثبت حصول قريش على الذهب من جيرانها ,وأن بعض هذا الذهب قد وجد طريقه للشمال .وواضح أن السبب في اتجاه بعض الذهب إلى الشمال يرجع إلى أنه كان بديلا للعملة ,ولم يكن بضاعة للتصدير "[٢] .

ويلاحظ على ما تقدم الآتي :

اعترفت كرون بوجود الذهب في شمال بلاد العرب, ولكنها أصرت إصرارا كبيرا على عدم وجوده في مكة ,على الرغم من ذكرها لثلاثة مناجم للذهب تقع في مكة أو على مقربة منها ,وترى أن مكة حصلت على الذهب من جيرانها ,وأن هذا الذهب وجد

(١) Crone.Op.Cit.,p.٩١.
(٢) Crone.Op.Cit.,p.٩٤.

طريقه للشمال بديلا للعملة وليس للتصدير , ولقد أغفلت تفسير ماذا فعل أهل مكة بذهب مناجمهم ,على الرغم من أنها أشارت إلى أن الحجاج بن علاط السلمي الذي كان يملك أحد هذه المناجم عُرف عنه الثراء الواسع ,وأنه كثيرا ما كان يقوم بإقراض أهل مكة أموالا كثيرة (وقد استغرق في جمعها أياما قبل أن يكتشف أهل مكة إسلامه) ؛ كما تشير إلى ما سُمي بالمناجم الجَبَلّيّة في إقليم جُهينة, التي ذكر أن الرسول (ﷺ) مَنح دخلها إلى بلال بن الحارث المزني[١] .

تضيف كرون : [" يقول أولئك الذين يعرفون مكة أن بها جبلين هما العير والعيرة ,وهما يشرفان على مكة ,يوجد فيها منجم للذهب......ولكن يبدو أنه لا يوجد جبل أو جبلان يسميان باسم العير" . وبالرجوع إلى المصادر التي أحالت إليها وهي : ياقوت الحموي , والبكري نجد ما يؤكد على وجود الجبلين على عكس ما ذكرت على النحو الآتي :

يذكر ياقوت أن "العير جبل بالحجاز ,قال عرام : عير جبلان أحمران من يمينك وأنت ببطن العقيق تريد مكة ومن يسارك شوران وهو جبل مُطل على السد " . ويذكر البكري "أن عَيْر جبل

---

(١) ياقوت الحموي ,ج٤,ص ٣٠٧المترجمة.

بناحيـــة المدينة "[١] ؛ وهكذا تقع كرون في هذا الخطأ وتنكر وجود الجبلين الذي ذكر الهمـــداني وجود ذهب فيهما حتى يتسنى تعزيز وجهة نظرها بنفي وجود الذهب في الحجاز ,وبالتالي حمل قريش له في قوافلها التجارية .

أضف إلى ما تقدم فهناك نصوص تعرفها كرون عن الموضوع لم تستخدمها في موضعها, تتمثل في تصريح ذنبة (Zinba) محصل الضرائب البيزنطي الذي قال " جاءت قافلة قريش إلى سوريا بدون الذهب ,هذا أمر مستحيل "[٢]. إن التعجب الوارد هنا جاء من عدم وجود الذهب في قافلة قريش ؛ ما يدل على أن القوافل اعتادت على حمله كمادة خام كانت بيزنطة تُحَصّل عليها الضرائب . وهذا لا ينفي قيام التجار بحمل النقود الذهبية معهم للتجارة التي لا يمكنهم الانخراط فيها بدونها أو بدون ما يقابلها .

يثبت مما تقدم وجود مناجم للذهب في مكة ,وبالتالي قام العرب باستخراج المعدن منها ,ولا يستبعد أن العبيد هم الذين كانوا

---

(١) Crone.Op.Cit.,p.٩٣.no.٢. ؛ياقوت ج ٤ ,ص ١٧٢ ,مادة عير,العيرة ,طبعة بيروت ؛ البكري,أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز(,ت ٤٨٧ هجرية/١٠٩٤ م) ,معجم ما استعجم ,مادة ثور , مجلد ١ ,ص ٣١٥ ,طبعة بيروت ١٩٩٨ ؛مادة عير ,مجلد ٢ ,ص٢٣٩

(٢) أبو الباجة هبة الله ,المناقب المزيدية,رقم ١١ب/ نقلا عن : Crone.Op. Cit.,p.٩٣,no.٢٠

يقومون بالعمل فيها نظرا لمشقة العمل وخطورته,مثلهم في ذلك مثل العبيد الإغريق الذين كانوا يعملون في مناجم لاوريوم Laureum الشهيرة في أثينا ,والعبيد الرومان في مختلف أنماط المناجم وصولا إلى العصر الحديث . والاحتمال القائم أن جزءً منها كان يحمله تجار قريش في قوافلهم إلى سوريا لبيعه فيها ,وهو الذي يبدو كان يتساءل عنه ذنبة محصل الضرائب البيزنطي عندما خلت قافلة قريش منه .ومما يدعم ما قدمنا ما ذكره الواقدي من أن الغساسنة اعتادوا الحصول على بعض الذهب الذي كان يوجد مع التجار , وفضل بعض التجار القيام بإخفائه بدلا من إعطائه للجمل لكي يبتلعه ؛ ويرجح وفرة الذهب في مكة أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه اشترى بلالا ودفع فيه رطلا من الذهب ,واشتهر عن العباس (رضي الله عنه) أنه أخذ معه عشرين أوقية من الذهب عندما ذهب إلى بدر,لينفقها على شراء طعام لقومه ؛ وافتدى العباس نفسه بسبعين أوقية وابن أخيه بسبعين أوقية عندما أسرهم المسلمون في معركة بدر الكبرى, ولم تذكر المصادر ما إذا كان قد تم دفع الفدية لهم بالفضة أو بالذهب . وترتيبا على ما سبق يمكن القول إن الذهب كان يمثل أحد روافد ثروة قريش.

عاشراً : يتضح مما سبق أن تجارة قريش مع الشام كانت لها

قدرها,لذلك كانت قريش حريصة على تأمين طريق تجارتها إلى هناك بعد هجرة المسلمين إلى المدينة , ويرجح ذلك ,أنه عندما اعتدى القرشيون على أبي ذر الغفاري عندما أعلن إسلامه , صاح بهم العباس بن عبدالمطلب قائلا :"ويلكم ألستم تعلمون أنه من غفار وأنه من طريق تجارتكم إلى الشام "[١].

الحادي عشر : كانت سياسته (ﷺ) موجهة منذ الهجرة إلى المدينة وحتى معركة بدر الكبرى ,نحو مهاجمة قوافل قريش المتجهة إلى الشام ,لإدراكه لأهميتها بالنسبة لاقتصادهم وتعويضا لأموال المهاجرين الذين أرغموا على تركها في مكة قبل الهجرة .ويعزز أهمية هذه التجارة النص الذي قدمه ابن هشام في السيرة عند حديثه عن غزوة تبوك في العام التاسع من الهجرة حيث يقول :"ولمّا انتهى رسول الله (ﷺ) إلى تبوك ,أتاه يُحَنة بن رؤبة صاحب أيلة , فصالح رسول الله (ﷺ) وأعطاه الجزية ,وأتاه أهل جَرَباء وأذرُح فأعطوه الجزية ,فكتب رسول الله (ﷺ) كتاباً فهو عندهم . فكتب ليُحنّة بن رؤبة :

"بسم الله الرحمن الرحيم : هذه أمَنَة من الله ومحمد النبي

---

(١) Crone.Op.Cit.,pp.١٢٩-١٣١.؛ عاملت مكة التجار الروم بالمثل ,إذ ذكر الأزرقي "وكانوا يُعشرون من دَخَلَها (مكة) من تجارِ الروم ,كما كانت الروم تُعَشّرْ من دخل منهم بلادها ",راجع الأزرقي ,المرجع السابق ,ص ١٠٧

رسول الله ليُحنة وأهل أيلة ,سفُنهم وسيارتُهم في البر والبحر : لهم ذمة الله وذمة محمد النبي ومَن كان معهم من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر ,فمن أحدث منهم حدثاً فإنه لا يحول دون نفسه ,وإنه طيب لمن أخذه من الناس ,وأنه لا يحل أن يمنعوه ماء يَرِدونه,ولا طريقا يُريدونه من برّ أو بحر" [(١)] , ويوضح كتاب الرسول لصاحب أيلة مدى حرصه (ﷺ) على ذكر أطراف الإيلاف الرئيسة الممثلة في أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر والسفن والقوافل معا, في معاهدة مع حاكم أيلة الواقعة على رأس البحر الأحمر ,والتي كانت تصلها قوافل قريش البرية وتجارة العرب البحرية من جنوب الجزيرة العربية إلى رأس البحر الأحمر . "وتشير إلى مصدرين وهما : الهمداني ,جوهرة العيان ,ص ١٣٧" .

التجارة مع الحيرة :

سارت كرون على نفس النهج فيما يخص سوق الحيرة وتقول : ["ويذكر ابن الكلبي في روايته عن الإيلاف أن أهل مكة كانت لهم تجارة منتظمة مع العراق وهناك عدة أدلة مادية تؤيد هذا الرأي ,إذ

---

(١) وعن اعتداء قريش على أبي ذر الغفاري راجع : البخاري ,أبو عبد الله محمد بن إسماعيل(ت ٢٥٦ هجرية),صحيح البخاري ,بيروت ١٤٢٤/٢٠٠٤م. ص ٦٧٣ ؛ وعن نص عهد الرسول مع صاحب أيلة راجع : ابن هشام ,السيرة ,المجلد ٢ , ص٥٢٥-٥٢٦ .

ذكرت إحدى الروايات أن أبا سفيان رافق قافلة قريش وثقيف إلى العراق ,وفي رواية أخرى تظهره على أنه تَاجر في الحيرة . كذلك صاحب أبو سفيان وسفيان بن أمية القافلة التي قام المسلمون بمهاجمتها في قَرَدة . وذهب الحكم ابن أبي العاص إلى الحيرة لبيع العطور فيها . أما مسافر بن أبي عمر فقد ذهب إلى هناك للحصول على المال من العمل في التجارة طبقا لما ذكره بعضهم , ويذكر آخرون أنه اختار أسهل وسيلة لطلب المساعدة من النعمان بن المُنذر .وطبقا لرواية الكلبي نفسه فإن تجارة قريش مع الحيرة هي التي نشرت الزَنْدقة في مكة . ويلاحظ هنا أن جميع الأفراد الذين ورد ذكرهم في النماذج السابقة

كانوا من بني أمية ,وكانوا يرحلون إلى الحيرة دائما .ولم تذكر الرواية أسماء الأماكن التي وصلوا إليها فيما عدا نوفل مؤسس تجارة العراق الذي ذكر أنه وصل إلى منطقة سالمان في بلاد العرب على طريق العراق . وهناك بعض المصادر التي تذكر تفصيلات أخرى عن الصلات التي تمت بين قريش والقبائل الواقعة على الطريق الذي نعنيه .

ويرجع السبب في صعوبة هذه الأقوال لتضاربها ؛ إذ إن الواحدة منها تناقض الأخرى ,وعلى سبيل المثال فإن ما ذكره ابن

الكلبي من أن نوفلاً تمكن من الحصول على إذن من الإمبراطور الفارسي (أو ملك الحيرة) بمنح قريش حق التجارة مع العراق ,غير أن الرواية القائلة بأن أبا سفيان الذي كان يصاحب قافلة قريش وثقيف للعراق جعلته يصرح بأن هذا الوضع أصبح خطيرا ,لأن الفرس لم يمنحوه تصريحا بالتجارة في أراضيهم ,وأنه لا يوجد متجر لهم هناك . وبالمثل يقول ابن الكلبي إن نوفلاً تمكن من عقد اتفاقات- إيلاف – مع القبائل التي كانت تقيم على طريق العراق حتى يضمن المرور الآمن إلى قريش ,ولكن مصادر أخرى (اعتمدت على ابن الكلبي)تقول إن قريشا تمكنت من إحراز حصانة تلقائية بين القبائل المقيمة على طول الطريق لأن قبائل مضر وحلفاءها كانوا يحترمون صلاتهم المباشرة بقريش ,لأنهم كانوا يعدّون أن رجال قريش رجال مُقَدسون .إن هذه الأقوال تتضارب مع قصة الحكم بن أبي العاص الذي طلب الجِوار,من أحد حلفاء مُضر عندما كان في طريقه إلى العراق ,أو بمعنى آخر أنه قام بعقد ترتيبات لضمان سلامته على الطريق, لأنه كان يجهل إيلافات قريش وحصانتها بين القبائل الأخرى, بل ذكروا أكثر من ذلك , فقد قالوا إنه عندما استولت قريش على الطريق الواقع في إقليم ربيعة ,قام بحراستهم أبناء عمر بن المَرصد ,زعيم قيس بن ثعلبة من بكر بن وائل حتى

يتمكنوا من المرور بأمان . ويبدو أن هذا يتفق مع وجود الاتفاقات – الإيلافات – (ولكنه يصعب مع وجـــود الحصانة). ويبدو أن أبا سفيان وصفوان بن أمية كانا يجهلان أمر هذه الترتيبات ,لذلك قالا إنهما سوف يصابان بخسائر شديدة عندما يرغمهم (محمد ﷺ) على قيادة قافلتهما لسوريا عن طريق العراق .وقد حل لهم بكر بن وائل المشكلة بأن أشار عليهم بأن يتخذا دليلا لهما ,ويبدو أنه كان يعمل حارس أمن أيضا , لقد كان هذا المرشد هو شخص غير معروف, ويسمى" فُرات بن حَيان ",وليس "عُمر بن المَرصدْ ".

إن الرواية هنا تذكر أن المكيين كانت لهم علاقات تجارية منتظمة مع الحيرة ثم تقوم بنفيها في الوقت نفسه ,ويحسب لهذه الرواية أنها ذكرت أن المكيين لم يكن لهم متجر ,بدلا من أن تَدّعي حرمانهم من متجر تاريخي كان لهم .ويبدو أن الافتراض بأنه لم يكن لهم صلات تجارية منتظمة هو أقرب إلى الواقع .لأن قصة قَرَدة تشير إلى أن المكيين لم يتاجروا مع العراق,إن ما ذكره أبو سفيان قاله وهو قائد لقافلة قريش وثقيف . وفعل الحكم بن أبي العاص الشيء نفسه في الجوار .وفيما عدا ابن الكلبي فلم يذكر أحد من المفسرين العراق أو فارس في تفسير رحلتي الشتاء والصيف اللتين ذكرتا في القرآن (الكريم). إن الوصف الذي ورد بخصوص علاقة قريش مع

مضر وربيعة على طول الطريق للعراق قد ورد نتيجة لزياراتهم لدومة الجندل (الجوف حاليا) . إن الروايات التي وصفت أبا سفيان ومسافرا كتجار في الحيرة كانت مختلفة فقد حَذفت صفة التجارة عنهم من بعض النصوص, وينطبق الشيء نفسه على قصة الكلبي عن نشر الزندقة في مكة ,وهي الظاهرة المشكوك تاريخيا في أمرها .وليس هناك من سبب يجعلنا نقول إن زياراتهم لم تكن نادرة , أو أنها لم تعبُرْ الحيرة .ويصبح من العبث أن نتحدث عن تجارة لقريش مع العراق وهو الأمر الذي سبق وقمنا بإيضاحه "][١].

نرى مما تقدم الاضطراب في المعالجة , فبعد أن تقدم كرون المصادر التي تؤكد قيام صلات بين قريش والحيرة ,وترفق معها الأدلة التي تشير التجارة معها , تعود في الختام وتنفيها نفيا قاطعا كما هو واضح في ختام الفقرة المذكورة أعلاه . ونلاحظ عليها الآتي :

أولاً : رفضت كرون النماذج العديدة التي قدمتها الرواية الإسلامية عن صلة قريش بالحيرة قبل الإسلام وتجارتها معها , وقبلت الرواية الوحيدة التي رواها الأصفهاني فيما يختص أبا

---

(١) اليعقوبي, أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب ابن واضح الكاتب العباسي المعروف باليعقوبي (ت ٢٨٤ هجرية /٨٩٧ م), تاريخ ,ج٢ ,بيروت ١٤٠٠ هجرية /١٩٨٠م), ص٤٦ ؛ يذكر أن قبيلة ربيعة حاربت كسرى وكانت وقعتهم في ذي قار وهزموا كسرى ,وكان ذلك "بعد وقعة بدر بأشهر أربعة أو خمسة " ؛ الواقدي ,المغازي ,ص ٢٧ .

سفيان وصفوان بن أمية.إن هذه الرواية وتلك لا تنفي وجود متجر لقريش مع فارس والحيرة ,لكنها ربما تشير إلى حدوث مستجدات ظهرت في الأفق , يأتي في مقدمتها استيلاء الحبشة على اليمن ورغبة فارس في حرمان الحبشة من سوقها, لذلك لا نستبعد محاولتها في فترة ما إغلاق سوقها أمام التجارة اليمنية والحبشية, التي كانت تحملها قوافل قريش ,وحتى لو صح هذا الافتراض فلا يبدو أنه استمر لفترة طويلة لاستمرار تردد تجار مكة عليها . أما فيما يخص أبا سفيان والحكم بن أبي العاص فقد حدث هذا بعد ظهور الإسلام,وقبيل فترة وجيزة من معركة ذي قار التي اشتبكت فيها قوات الفرس مع العرب بعد شهور قليلة من انتصار المسلمين في معركة بدر الكبرى,مما يرجح أن العلاقات كانت متوترة بين الطرفين في تلك الآونة ,لذلك كان لابد من تأمين أبي سفيان والحكم بن أبي العاص طريق تجارتهم إلى هذه السوق, نظرا للأوضاع التي استجدت هناك سواء بالنسبة للعلاقة مع الفرس أو بالنسبة لملاحقة المسلمين لهم وإلحاق الخسائر الاقتصادية بهم منذ هجرة المسلمين إلى المدينة .

ثانياً : كان ملوك ساسان يرسلون قوافلهم إلى جنوب الجزيرة العربية يخفرها وكلاؤهم فتحمل إلى العراق وأسواق فارس منتجات

تلك المناطق ,ومنها منتجات الحبشة على وجه الخصوص ,لأن فارس والحيرة كانتا على اتصال مباشر بتجارة الشرق الآتية من المحيط الهندي ومنطقة الخليج وربما حضرموت واليمن منذ احتلال الفرس للأخيرة عام ٥٧٠ (١). وتضمنت تجارة الحبشة إلى فارس والحيرة اللآدن وريش النعام والعاج والرقيق ,ويمكن أن نفهم السبب في عدم وصول منتجات الحبشة مباشرة في عهد أبرهة الحبشي الذي عادى الفرس لعداء الدولة البيزنطية لها , وكذلك في عهد ذي يزن وخلفائه الذين عادوا الحبشة .ويبدو أن البضائع الحبشية كانت تصل بحرا إلى ميناء الشعيبة ,فتتولى قوافل مكة بموجب الإيلاف نقل ما تيسر منها ,وفقا لحاجات الحيرة وفارس .وكان تجار مكة يفدون على المدائن ويتصلون بديوان كسرى ويشتغلون هناك بالبيع والشراء , وكان في الحيرة سراة (أي الأثرياء) نصارى اشتركوا مع سراة قريش في تجارتهم, مثل كعب بن عدي التنوخي ,وكانت له شراكة في الجاهلية مع عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في تجارة البز- الحرير(٢) .

ثالثاً : يروي الأصفهاني كثيرا من الأخبار عن علاقات بعض المكيين بالحيرة , فيقول على سبيل المثال إن مسافر بن عمرو بن أمية له شعر ليس بالكثير , وكان يهوى هند بنت عُتبة التي تَغنى فيها في

---

(١) . Crone, Op.Cit.,pp.٤٨-٩

(٢) سحاب,المرجع السابق ,ص ٢١٨-٢١٩ والمصادر المذكورة لديه .

شعره وخطبها إليه من أبيها بعد فراقها الفاكهة بن المغيرة ,فلم ترض به رغم ثروته وماله . فوفد على النعمان يستعينه على أمره ثم عاد ". ويقول في رواية أخرى "فخرج حتى أتى الحيرة ,فأتى عمرو بن هند فكان ينادمه .وأقبل أبو سفيان بن حرب إلى الحيرة في بعض ما كان يأتيها "[١]. ونعلم الكثير عن وفود النابغة الذبياني على النعمان وعلى بني جبلة الغساسنة ,ثم اعتذاره شعرا للنعمان . وعن عمرو بن كلثوم ووفوده على الحيرة وقصته مع عمرو بن هند . إن علاقات قريش بالحيرة قد حفظت لنا بفضل الشعر ,وليس فيها ما يتعلق مباشرة بالأوضاع التجارية أو السياسية التي لم يكن الشعر يهتم بمثلها ,ولكنها تدل على صلات بين قريش والحيرة ,ولم يكن لمثل هذه العلاقات أن تزدهر إلا بفضل المواصلات التجارية التي ازدهرت مع إيلاف قريش وقوافلها ,ورحلة الشتاء والصيف وما كان من أمر المواسم .

رابعاً : تخبرنا بعض المصادر العربية أن أحد أفراد عبد الدار اعتاد أن يتاجر مع فارس صراحة ,وكان يحضر معه قصصا فارسية , كان يقوم بروايتها لقريش عند عودته لمكة قائلا إذا كان محمد (ﷺ) يستطيع أن يخبرهم عن عاد وثمود فهو باستطاعته أن يروي لهم عن

---

(١) الأصفهاني ,أبو الفرج علي بن الحسين بن محمد بن أحمد القرشي (ت ٣٥٦هجرية /٩٦٧ م), الأغاني ,ج٩,القاهرة ١٩٦٣,ص ٥٠ , ص ٥٥ وما يليها.

رستم وأصفنديار وأباطرة الفرس ,وبالرغم من ذلك ترى كرون "صعوبة كبيرة في الادعاء بوجود تجارة لقريش مع فارس على أساس ما ورد ذكره سلفا ". أما مسافر الذي قابلته كرون مع أبي سفيان في الحيرة فلا تأخذ به هو الآخر" لأنه ذكر في رواية واحدة فقط أنه ذهب إلى هناك للتجارة ",بينما تقبل رواية واحدة عن ما ذكر عن أبي سفيان والحكم كما سبق تقديمه أعلاه ؛ ما يؤكد على أنها مصرة على رفض أي دليل(١).

خامساً: يبدو أن تجارة قريش تعاظمت بينما تهاوت مكانة الملوك اللخميين في بلاط كسرى ؛لأن القبائل العربية أخذت تهاجم قوافل الفرس ,أما قوافل ملوك الحيرة فلم تعد تُرسل مثلما كانت تُرسل كل عام ,واستفادت مكة من ذلك وأخذت السوق لنفسها خصوصا بعد مقتل النُعمان ابن المنذر وانتصار العرب على الفرس في يوم ذي قَار . لقد تميز موقع قريش في الإيلاف بالحركة على كل الأطراف الأخرى خاصة وأنها لم تكن تضيع الفرصة إلا وتسارع بملء كل فراغ شاغر في تجارة الشرق حتى تمكنت من السيطرة عليها(٢) . وعلى الرغم من تجارة قريش مع العراق كما تشير إليها

(١) Crone ,Op. Cit. ,pp .١٣٠-١٣٢,nos.١٢٦,١٣٣.

(٢) راجع الحاشية رقم ٨٧ ,٩٩أعلاه ؛ وعن يوم ذي قار راجع : عبد الحميد , سعد زغلول,تاريخ العرب قبل الإسلام ,بيروت ١٩٧٦,ص ٢٣.

المصادر التي سبق تقديمها,لكنها على ما يبدو لم تكن في حجم تجارة قريش مع سوريا لسبب منطقي أن فارس كانت على اتصال مباشر مع بضائع الهند وبضائع جنوب غرب الجزيرة العربية عبر الخليج العربي ,وتمثلت حاجتها الرئيسة في البضائع الحبشية التي كانت تحملها قوافل قريش لها . وعلى الرغم من أن كرون تعترف صراحة أن زيارة قريش للعراق لم تكن نادرة ,لكنها تعود بعد ذلك مباشرة إلى نفي ما قدمت بقولها "أنها لم تعبُر الحيرة ويصبح من العبث أن نتحدث عن تجارة لقريش مع العراق ",وحتى لو افترضنا جدلا أنها لم تعبر الحيرة ,فأين كانت تذهب بعد وصولها إلى هناك ؟ يقول المنطق أنها كانت تعبر منها إلى العراق ,ويؤكد على ذلك تجار قريش الذين قابلناهم هناك ,والبضائع الحبشية والعربية التي كانت سوق فارس في حاجة إليها .

التجارة مع اليمن :

تقول كرون : [" وُصفت اليمن بأنها المكان الثاني ,المهم والكبير الذي وصلته تجارة مكة . وقد تم تَوصيف الرحلتين المذكورتين في سورة قريش ,على أنهما رحلات تتجه إلى سوريا واليمن .

وقد قامت هناك علاقة بين عدد من القرشيين واليمن ,كان من بين الهاشميين عبدالمطلب (الذي ذكر أن رحلاته كانت بهدف

التجارة) والعباس بن عبد المطلب وابن عباس ,ويأتي فوق جميع المخزوميين أبو ربيع بن المغيرة ,والوليد بن المغيرة , وفقيه بن المغيرة ,وهشام بن المغيرة وأبناؤه ,وعبد الله بن أبي الربيع ,وعمارة بن الوليد .وارتبط المخزوميون باليمن والحبشة من عدة وجوه ,أما القصة المذكورة في كتاب دلائل النبوة ,عن زيارة أبي سفيان لليمن فيمكن رفضها بسهولة ,وعلى الرغم من مشاهدة قرشيين آخرين في رحلات تجارية إلى اليمن ,وهذا يعني أن الدلائل التي تشير إلى القوافل التجارية المسافرة بين مكة واليمن لم تكن نادرة .

ولدينا بعض المعلومات عن الأماكن التي ذهب إليها التجار ,ففي رواية ابن الكلبي عن الإيلاف يذكر أن المطلب (الذي عمل في اليمن ما قام به هاشم في سوريا) وتوفي ,وهو في طريقه إلى اليمن في مكان غير مشهور يسمي رَدْمَان Radman , وهو عكس المكان الذي كان يتوقعه المرء فهو لم يكن في "عدن" التي كانت بمثابة السوق اليمنية الكبرى للعطور في ذلك الوقت .كذلك يَرد ذكر "صنعاء" في المواضع السياسية أكثر من ذكرها في النصوص التجارية .حيث يذكر أن رجلا من صنعاء كان يدين بمال لعبد المطلب,كذلك يذكر في إحدى العبارات الخاصة بقصة بناء أبرهة للكنيسة وجود قرشيين في هذه المدينة, ولكن ورد في أحد النصوص المناقضة أن

نجــران كانت هي مكان الحديث ,ونحن هنا نقف على أرض صُلبة , فقد استقر هاشم بن المغيرة في نجران ,وإليها هَرَبَ حُبَيّرة بن أبي وهب بعد فتح مكة .وذكر بعضهم أن الوليد بن المغيرة كان يدين لأسقف نجران بمبلغ من المال .وكان كل هؤلاء الرجال الثلاثة من مخزوم . ومن المفترض أن عبد المطلب كان صديقا لأسقف نجران , وكان لديه حَمَّال يهودي من نجران اعتاد التجارة في أسواق تهامة , وإضافة إلى ذلك فقد ورد ذكر نجران في أحد النصوص الخاصة بالمكان الذي كان يَحصل منه تجار مكة على العطور,وكان يمكنهم شراء الملابس منه أيضا .

واشتهرت قبيلة مراد في نجران ببيع الحمير ,وعُرف عنهم قيامهم ببيعها لقبيلة دوس في السَراة ,ويبدو أنهم كانوا يَحصلون من قبيلة دوس , وقبائل أخرى على العبيد الأحباش .وكان لأبي سفيان حليف مهم أزديٌ من السُراة , ما يعني أن عدد القرشيين كان كبيرا في تلك المنطقة ,كذلك قام التجار القرشيون بزيارة سوق حُباشة السنوي ,على مسافة ستة أيام من جنوب مكة ,في إقليم باريق Bariqe , وهي قبيلة أزديّة ؛إذ قام أفرادها بشراء ملابس من هناك . وعلى هذا فإن التجارة مع اليمن كانت تعني التجارة بين مكة ونجران على تلك الحافة من الأرض ,التي كان يحتلها كل من الأحباش

والفرس ,أكثر مما يعني أنها كانت تجارة مع اليمن نفسها "][1].

وعند مناقشة كرون لهذا الجانب من القضية نلاحظ الآتي :

أولاً : يؤكد القرآن الكريم وجميع المصادر الإسلامية المكتوبة بلا استثناء حادثة محاولة أبرهة غزو الحبشة ؛ وورد التأكيد على التجارة في أحد المصادر الإسلامية التي تغاضت عن ذكرها تماما في هذا الموضع عن تجارة قريش في اليمن, وأنها كانت بتصريح رسمي من حاكمها الحبشي ؛ إذ يروي أحد هذه المصادر أن أبرهة حين علم بتلطيخ القليس قال :"هذا دسيس قريش لغضبهم لبيتهم الذي تحج إليه العرب ..... وكان بصنعاء تجار من قريش فيهم هشام بن المغيرة فأرسل إليهم أبرهة فأقبلوا حتى دخلوا عليه فقال لهم : ألم أطلق لكم المتجر في أرضي وأمرت بحفظكم وإكرامكم ؟[2] . اكتفت

---

(١) Crone ,Op. Cit. ,pp .١٢٠-١٢٤ ؛ تخصص عبد الله بن أبي ربيعة في تجارة اليمن ,وكان يرسل العطور لأمه لبيعها في المدينة أثناء خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكانت تبيعه نقدا أو دينا,وإذا باعت دينا كتبت مقدار الدين . الأصفهاني , الأغاني ,ج١, ص٦٤ ؛ وكانت هناك نساء أخريات غيرها يقمن ببيع العطور فيها .وتاجر أبو طالب في البضاعة نفسها ,أغلب الظن أنها كانت يمنية أيضا .راجع عن صناعة العطور العربية التي كانت لها شهرتها في العالم القديم كتاب : كرون ,باتريشيا,تجارة مكة وظهور الإسلام ,ترجمة ودراسة آمال محمد الروبي ,القاهرة ٢٠٠٥م ,الحاشية المذكورة ص١٧١-١٧٠ أدناه.

(٢) سحاب ,المرجع السابق ,ص ٢١٥ .

كرون هنا كما هو واضح أعلاه بتقديم إشارة سريعة إلى النص للقارئ دون أي تفصيل عنه حتى لا تُجب فكرتها المسبقة عن الموضوع, ولم تذكر أن النص يتحدث عن كون أبرهة قد عقد لهم إيلافا يجيز لهم الاتجار في اليمن , أو أنه أجاز لهم ما كان سلفه يجيزه لهم قبله,وحتى لو افترضنا جدلا معها أن نجران هي مكان الحديث مع قريش , فالكنيسة التي لطخها القرشي وكان أبرهة يتحدث عنها كانت تقع في صنعاء وليست في نجران,كما أن تصريح أبرهة لقريش بالتجارة لم يكن قاصراً على نجران ولكنه كان شاملاً لليمن كلها .

ثانياً : يتضح من الأسماء التي رددتها المصادر الإسلامية مثل : عبد المطلب , والعباس بن عبد المطلب وابن العباس ,وأبو ربيع بن المغيرة ,والوليد بن المغيرة , وفقيه بن المغيرة ,وهشام بن المغيرة وأبناؤه ,وعبد الله بن أبي الربيع ,وعمارة بن الوليد ,وأبي سفيان ؛ أن قافلة قريش وتجارتها لم تكن قاصرة على قريش وحدها, لأن تجارتها لم تكن تجارة احتكار , لكنها تجارة الشريك الأكبر التي يشارك ويستفيد معها الجميع .وبالتالي كان يمكنها شراء البضائع من الذين يحضرونها لها , إلى جانب ما تقوم هي بحمله من الأسواق التي ترتادها أو تصل متاجرها إليها.

ثالثاً : مما لا ريب فيه أن هزيمة أبرهة عام ٥٧٠ م في مكة ,كانت فاتحة عهد جديد وصل بمكة إلى ذروة نفوذها في اليمن وبين سائر العرب بعد فشل أعظم محاولات إخضاعها ,وأخطر مخططات الاستيلاء على تجارتها وانتزاع الزعامة الدينية والسياسية والاقتصادية منها . هذا على الرغم من أن الكُتاب المسلمين- كما هو معروف - لم يكن لديهم اهتمام مباشر بالنواحي الاقتصادية وذكرها تفصيلا طالما لم تكن لها صلة مباشرة بالأحداث الدينية والسياسية , التي كانت محل اهتمامهم الأول وهو الأمر الذي أشارت إليه كرون دون القيام بتفسيره .

رابعاً : أما الجانب الثاني في قضية تجارة اليمن,وهو أنها كانت تتوقع أن يكون موت المطلب في عدن وليس في ردمان التي تقع في جنوب اليمن كما حدث, فهو قول غريب الشأن ؛إذ إنها تعزز ما تقول بفروض غريبة ,خاصة بأنها كانت تتوقع موت المطلب في ردمان وليس في عدن,وعلى أي حال فقد ذكر ابن حبيب أنه مات في هذا المكان , وهو في طريقه إلى اليمن,ولم يذكر أنه كان مقيما في ردمان ومات فيها كما قد يتبادر إلى الذهن مما ذكر .

خامساً : لم توضح كرون ظهور هشام بن المغيرة بين تجار مكة في صنعاء,ونلاحظ أن هذه الحقيقة تتوارى في الحاشية .وتفعل الشيء

نفسه مع الوليد بن المغيرة ,وفقيه بن المغيرة ,وعبد الله بن أبي الربيع وجميعهم ذهبوا إليها تجارا كما تذكر المصادر [١] .

سادساً : أوحت الباحثة للقارئ أن اليمن شيء وعدن شيء آخر ,بينما الحقيقة أن الثانية هي ميناء الأولى ؛ كما كانت نجران جزءا من حدود اليمن الشمالية في ذلك الحين .

سابعاً : أغفلت كرون هنا الوفود القرشية التي جاءت لتهنئة سيف بن ذي يزن على انتصاره على الحكم الحبشي لليمن , وتهليل وفود العرب له ومن بينها وفد قريش الذي تذكر المصادر العربية أن عبد المطلب جد النبي- صلى الله عليه وسلم - كان من بين الوفود العربية التي وفدت إلى سيف بن ذي يزن ,وهو أمر ليس ممكنا فقط ولكنه مرجح, نظرا لما كان لمكة من مصالح تجارية وسياسية مع اليمن ,بخاصة بعد محاولة أبرهة غزو مكة وهدم الكعبة ,ومواجهة عبد المطلب ,ولم يكن قد مضى على ذلك سنوات طويلة .

ثامناً : لم تكتفِ كرون بهذا العدد الكبير من الأفراد الذين ذكرتهم المصادر الإسلامية ,وتحدثت عن وجودهم في اليمن وتجارتهم فيها : سواء في عمقها أو على أطرافها ,ويبدو أنها كانت تريد أن ترى تجار مكة جميعهم هناك ,والشك الذي لدي قليل في

Crone ,Op. Cit. ,p .٧٠,nos.٧١,-٧٥. (١)

أنه حتى ولو حدث ذلك, لكانت ستجد لها مبررا لنفي قيامهم بالتجارة فيها لأن الفكرة المسبقة التي اختمرت لديها هو معارضة ثوابت التاريخ الإسلامي وبالتالي كل ما جاء في تفسير سورة قريش, وليس معنى هذا أن روايات الإخباريين في المصادر الإسلامية بعيدة عن تطبيق مقتضيات ومعايير التدقيق والنقد التاريخي العلمي ,التي يستخدمها المؤرخ عند القيام بعملية تحليل مصادره,ولكن على شريطة أن يستند على أسس قوية ,ويقف على أرض صلبة في الرأي الذي يصل إليه في موضوع بحثه بعيدا عن الهوى والغرض .ومن التحليل السابق يتضح أن تجارة مكة مع اليمن لم يكن المقصود بها تجارتها مع نجران فقط ولكن تجارتها مع كل اليمن كما توضح المصادر , بدليل الأعداد الكبيرة من الأفراد الذين تواجدوا فيها والذين ذكرت بعض المصادر صراحة أنهم كانوا هناك بهدف التجارة .

التجارة مع الحبشة :

تقول كرون :["إن قصة التجارة مع الحبشة تعد مشكلة في حد ذاتها ,فالحبشة تصنف على أنها سوق كبيرة للقرشيين لها بعض الأهمية ,فيما ورد لدى ابن الكلبي وآخرين ,وذلك على الرغم من عدم وجود أدلة عن التجارة التي نعنيها .وذكرت إحدى الروايات

أن أحد التجار القرشيين عاد من الحبشة عن طريق اليمن ,ولكن يرى بعضهم أن هذا التاجر لم يتجاوز اليمن .ويذكر آخر أن عمارة بن الوليد المخزومي أبحر إلى الحبشة مع عمرو بن العاص للتجارة , ولكن المفسرين ذكروا أن هذه الرحلة كانت تعكس أهدافا سياسية , أكثر منها أهدافا تجارية .وهناك قصة أخرى يذكرها المفسرون, وهي أن مولى ابن سهم أحد بطون عشيرة عمرو بن العاص أبحر إلى الحبشة للتجارة ,وكان يصاحبه اثنان من التجار المسيحيين من فلسطين ,ومما لا شك فيه وجود قصص كثيرة من هذا النوع ,وعلى ذلك يمكن أن نرد على المتحمسين , الذين يقولون "بأن الأدلة التي تشير إلى نشاط العلاقات التجارية بين مكة والحبشة توجد في كل مكان "بأن رأيهم يمكن بصعوبة أن يكون صحيحا.

ونحن لا نعرف أية معلومات عن الأماكن التي يذهب إليها تجار قريش في الحبشة ؛ فاسم أدوليس وهو الميناء الحبشي المشهور لم تعرفه مصادر قبل الإسلام أو بعده ؛ وعلى الرغم من أن جميع الروايات الخاصة بالقرشيين في الحبشة ,تظهرهم تجاراً أو دبلوماسيين ,ومن بينها تلك الخاصة بنجاشي الحبشة ,فإنها جميعها لم يرد فيها ذكر أكسوم , ما يبدو معه أنها كانت تجهل أسماء المناطق الحبشية , فقد مات هاشم في غزة ,ومُطلب في ردمان طبقا لحديث الإيلاف

لابن الكلبي ,ولكن أخاه عبد شمس مات في مكة نفسها .

فكيف يمكن للروايات أن تصور التجارة بين مكة والحبشة ؟إن أحد الاحتمالات يتمثل في قيام قريش بالقدوم إلى مكة أو إلى الشعيبة مباشرة بدلا من الطريق الدائري .ولدينا عدة روايات بخصوص وجود الأحباش في مكة ,من بينها القصة الخاصة بأصول ثروة قصي ,فقد قام بقتل أحد النبلاء الأحباش ونهب ثروته ,وكان قادما إلى مكة من أجل التجارة . وفي إحدى الروايات الخاصة بكيفية وصول تجارة مكة لنهايتها ,تذكر أن الأحباش كانوا يحضرون المواد الغذائية لجدة ,لهذا السبب لم يعد أهل مكة في حاجة للقيام برحلتهم الشاقة إلى سوريا .وذُكر أن حي مخزوم في مكة كان يوجد فيه دار العلوج dar al-uluj التي كان يقطنها الأحباش . ومن المرجح أن جيش أبرهة أقام في منطقة خلف الكعبة ,وعمل أفراده حِرفيين ورعاة أغنام .إن هذه الروايات ,وليست جميعها ,تعكس الأحباش المحررين ,أكثر من كونها تعكس التجار الأحرار ,لقد ذكرت الرواية العربية المتشددة ,أن تجار مكة كانوا يقومون بزيارة الحبشة ذاتها ,فقد قاموا بإجراء مباحثات مع حاكمها ,أما عن قيام بعض التجار الأحباش بزيارة الحبشة ,فإن ذلك لا يقدم حلا للمشكلة التي نحن بصددها . ويتمثل الاحتمال الثاني في أن تجارة

مكة لم تكن مع الحبشة ذاتها ,ولكنها كانت مع اليمن خلال الحكم الحبشي لها .وهنا نجد أمامنا قبيلة مخزوم نفسها ,التي كانت تتاجر مع كل من اليمن والحبشة ,وعلى الرغم من ذلك فهي لا تقدم سوى معلومات قليلة عن تجارة الحبشة . ومن الغريب أن بعض المصادر تذكر تجارة مكة على أن رحلة منها كانت مع سوريا والحبشة ,أو سوريا ومصر أو مع الحبشة في حالة استبعاد اليمن . وفيها أن كلمة حبشة (Habasha) هنا تعني الأحباش الموجودين في اليمن , وليس الموجودين في الحبشة ذاتها , يضاف إلى ذلك أن أحد المصادر الحالية يذكر أن أحد الحكام الذين حصلت قريش منهم على الإذن بالتجارة مع اليمن كان حبشيا .إن الرواية لم تذهب أبعد من ذلك ,كأن تقول إن حاكم اليمن كان النجاشي نفسه , ولكنها تصر على عبور قريش للبحر للوصول إلى أثيوبيا ,وهو الأمر الذي لا نوافق عليه .

وهناك احتمال ثالث يتمثل في أن قريشا كانت تتاجر مع الحبشة عن طريق القرشيين المقيمين في اليمن , وليس عن طريق مواطني مكة ,وعلى أي حال فإذا كان القرشيون ذهبوا للحبشة فيكون ذلك قد تم عن طريق اليمن .فقد ذُكِرَ أن المهاجرين أبحروا مباشرة من الشعيبة بواسطة سفن من الواضح أنها أجنبية ,تصادف أنها كانت راسية هناك ,كما فر عكرمة بن أبي جهل بعد فتح مكة عن طريق

العبور إلى الحبشة كما يذكر الطبري .وعن طريق اليمن كانت تأتي تجارة الحبشة , وطبقا لما ذكره الواقدي ,فإن عكرمة قام بركوب السفينة في منطقة ما من تهامة (بدلا من عدن) ,بالإضافة إلى حقيقة ارتباط مخزوم مع كل من التجارة اليمنية والحبشية , يمكن أن يعني أن المكيين المقيمين في اليمن كانوا يشاركون في التجارة المحلية مع الحبشة , وقاموا ببيع بضائع محلية ,أكثر من كونها بضائع مكية في الحبشة ,كما قاموا بتوزيع البضائع الحبشية محليا وليس في أسواق مكة ,وإذا أصرت الرواية العربية على أن البضائع كانت مكية وأنها نالت إعجاب النجاشي ؛ حتى أنه أخذ يفكر في تجارة حبشية توجه من مكة نفسها ,فإنه يمكننا التغاضي عن هذا لأننا لم نر قرشيين يقومون بتوزيع بضائع حبشية في أسواق مثل عكاظ .وإذا كانت التجارة القرشية مع إثيوبيا , تتم عن طريق الشتات(diaspora) في اليمن ,فإنه أقل غرابة من أن الرواية المرادفة , لم تتذكر سوى إشاراتها فقط إلى أنها كانت موجودة .

وهناك رأي يقف ضد هذا الطرح وهو المستمد من الروايات التي تذكر أن تجارة مكة مع الحبشة تمثل امتدادا لتجارة مكة مع بيزنطة وسوريا أكثر من كونها كانت قائمة مع اليمن ,والاعتماد هنا على جملة وردت في رواية الإيلاف ؛ إذ يذكر فيها أن الإمبراطور

البيزنطي هو الذي حصل على تصريح لقريش للتجارة مع الحبشة . وهناك رواية منفصلة تذكر أن عبد شمس المؤسس التقليدي للتجارة مع الحبشة مات في غزة مثل أخيه هاشم ,أما المولى الذي أبحر للحبشة مع المسيحيين الذين كانوا من فلسطين ,فيبدو أنهم أبحروا عن طريق أيلة . ومن المفترض أيضًا أن عمرو بن العاص كانت له تجــارة في سوريا ومصر والحبشة .ولكن من المنطقي أن نترك جانبا هذا العامل ,لأنــه يحرك إلى جانب أشياء أخرى تلك الصلات المعروفة بين بيزنطة والحبشة ,ويجب أن نواصل الحديث على أساس التفسير بأن تجارة الحبشة كانت تدار من الشتات (diaspora) في اليمن . ولا يبدو أن أيا من هذه الحلول يُعد دقيقا بمعنى الكلمة .

ويرجع السبب في وجود هذه المشكلة المستعصية إلى حقيقة الوضع البارز والاستثنائي بالنسبة للحبشة : من الناحيتين السياسية والدينية ,وارتباطها بظهور الإسلام ,فهي تلك البلاد القابعة خلف البحر والتي وجد فيها كل من المسلمين وغير المسلمين ملجأ وملاذا, وكان لحاكمها شهرة كبيرة خصوصا بين المسلمين ,فقد استقبلهم ورفض تسليمهم ,وكان هو الحاكم الوحيد الذي قبل دعوة محمد (ﷺ) للدخول في الدين الجديد . ويتفق مع ذلك وجود عدد كبير من الكلمات الخاصة بالقروض في اللغة الحبشية لها ارتباط باللغة

العربية ,ويأتي فوق ذلك الارتباط القائم في النواحي العقائدية ,هذا على الرغم من أن جميعها –أو أغلبها – يمكن أن ترجع في أصولها إلى العربية الجنوبية . ولكن من الصعب القول بأن هذه الإشارات تعكس صلات تاريخية . لقد جرت العادة على تفسير هذه الأدلة في ضوء وجود العلاقات التجارية ,وهي الطريقة نفسها التي لجأ إليها العلماء المسلمون المبكرون . ومن الصعوبة بمكان القول بأن أيا من الكلمات الخاصة بالقروض تفسر اصطلاحات تجارية ؛ إن الغالبية العظمى منها قد دخلت العربية عن طريق القرآن (الكريم),إضافة إلى كل ذلك فلم يكن لمحمد (ﷺ) تجارة مع الحبشة ,كما لم يذهب إليها لاجئا ,وخصوصا أن كتاب الرواية لم يعرفوا شيئا عن التجارة, التي كان من المفروض أن يعكسوها في كتاباتهم .لهذا فمن الخطأ أن نُحَمّل هذا القول أكثر مما يحتمل ,ونتوسع فيه لينسحب على التجارة لنفسر بها تلك الحقبة الغامضة من التجارة مع الحبشة ,ويكون من الأفضل على ما يبدو أن نقوم بشرح هذه الأدلة الخاصة بالتجارة عندما أو إذا كان يوجد لدينا تصنيف لها .وفي الختام يمكن القول إنه مهما كانت صورة تجارة قريش مع الحبشة ,فمن المستبعد أنها لعبت دورا كبيرا في اقتصاد مكة "] [١] .

ذكرت كرون Crone في النص السابق أعدادا من المكيين

Crone ,Op. Cit. ,pp .١٢٨-١٢٩. (١)

الذين وجدوا في الحبشة ,كما ذكرت روايات عن وجود الأحباش في مكة ,ولكنها تفضل القول بأن المقصود بهم هم الأحباش الموجودين في اليمن وليس الموجودين في الحبشة ذاتها .والاحتمال الثاني الذي تقدمه هو أن تكون قريش قد تاجرت مع الحبشة من خلال سوق اليمن (ويلاحظ القارئ أنها هنا تؤكد بطريقة غير مباشرة وصول قريش إلى سوق اليمن الذي سبق وأثارت الشكوك حوله أعلاه),أما موضوع عدم انتقال المكيين إلى الحبشة وعبورهم البحر فتقول عنه : " فهو الأمر الذي لا نوافق عليه" ؛ وترفض في نفس الوقت أن تكون تجارة الحبشة قد لعبت دورا كبيرا في اقتصاد مكة ؛ ولم تقدم دليلا واحدا مقنعا لقطعها بالنتيجة الختامية التي توصلت إليها على الرغم من أن الحقيقة كانت على غير ذلك على النحو الآتي :

١- يذكر أبو نعيم سؤال النجاشي لمبعوث قريش عندما استفسر منه عن سبب وجوده إذا لم يكن جاء لهدف التجارة ,مما يدل على معرفة النجاشي قدوم قريش إلى الحبشة للتجارة [١].

٢- كان العرب يعرفون ميناء أدوليس منذ الفترة السابقة على الإسلام على غير ما تدعيه ,ويظهر ذلك من أشعار طرفة بن العبد

---

(١) أبو نعيم ,دلائل النبوة ,ص ١٩٧المذكور في : Crone ,Op. Cit. ,p .١٢٤,no.٩٤.

الذي عاش في أواخر القرن الثالث في معلقته :

كأنّ حُدُوجَ المالكيةِ غدوة ... خلايا سفينٍ بالنواصفِ مِن دَدِ
عَدوْليةَ أو مِن سَفينِ ابنِ يامنٍ ... يَجوزُ بها الملاحُ طوْرًا ويَهتَدي
يَشُقُ حُبابَ الماء حَيْزومُها بها ... كما قسمَ التربَ المُفايل باليدِ(١)

والعدولية هي سفينة من مرفأ عدوليس أو أدوليس بالحبشة ,أما ابن يامن البحار العربي فيبدو أنه كان يمتلك مجموعة من السفن . وقول الشاعر : عدولية أو من سفين ابن يامن يوحي بأنه كان يظن أن السفينة تبدو حبشية أو عربية , إن قول مثل هذا الشعر يتعذر على شاعر لم يخض البحر بنفسه.

٣ — ذكر ابن إسحاق أن عكرمة بن أبي جهل فر إلى اليمن , وبعد أن استأمنت زوجته أم حكيم من الرسول (ﷺ) "فلحقت به في اليمن ,فجاءت به ".أما الواقدي فيذكر أن زوجته أدركته بعد فراره إلى اليمن في ساحل من سواحل تهامة وأحضرته معها إلى رسول الله (ﷺ) ,ويوضح الطبري أنه بعد خروجه إلى اليمن" كان يريد ركوب البحر ليلحق بالحبشة ",ما يوحي بمعرفته بها بصورة أو بأخرى,لذا فكر في أن يتخذ منها ملجأ وملاذا بعد فراره من مكة(٢) ؛ إضافة إلى أن المصادر السابقة ذكرت جميعها وصوله إلى اليمن,

---

(١) الزوزني ,شرح المعلقات السبع ,معلقة طرفة ,ص ٦١ ؛راجع أيضا الحاشية رقم ٢ أدناه .
(٢) ابن هشام ,السيرة ,ج٢,ص٤١٨ ؛الواقدي ,المغازي,ج٢,ص٨٥١ ؛الطبري,ج٣,ص٦١ .

وحدد مصدر واحد منها فقط وصوله إلى ساحل من سواحل تهامة فيها دون تحديد المكان فيه .

٤ – كان ميناء الشعيبة القريب من ميناء جدة الحالي مستخدما منذ فترة ما قبل الإسلام لنقل التجارة بين الحبشة ؛ فقد كان العرب يعرفون ركوب البحر على عكس ما يظن البعض ؛ ومن أقوى الدلائل التي تدل على ذلك,أن القرآن الكريم حفل بعبارات كثيرة عن الملاحة والبحر والسفن ,ولو لم يكن أهل مكة والمدينة ملمين بهذه العبارات ومعانيها ,لما كان من المنطق أن يخاطبهم القرآن الكريم بها . ومن الآيات التي وردت في القرآن الكريم وتشير إلى ركوب البحر التالي : (البقرة : ١٦٤) ؛ (الكهف : ٧٩,٧١) ؛ (العنكبوت : ١٥ ,٦٥) ؛ (الزخرف : ١٢) ؛ (هود : ٤١) ؛ (الأعراف : ٦٤) ؛ (النحل : ١٤) ؛ (المؤمنون : ٢٢) ؛ (إبراهيم : ٣٢) ؛ وأكد الجاحظ أن قريشا كانوا يستخدمون سفنا لحسابهم لنقل التجارة بينهم وبين الحبشة .وربما يتبادر إلى ذهن القارئ التساؤل عن السبب الذي كان يمنع الحبشة في أن تتولى أمر تجارتها بنفسها ونقلها إلى الشمال عبر البحر الأحمر بديلا من تسليمها لقريش للقيام بتلك المهمة ؟ ويمكن تفسير ذلك بكثرة الشعاب المرجانية في شمال البحر الأحمر التي كانت تعيق النقل

البحري في ذلك الوقت ؛ولم يكن أمامها بديلٌ آخر غير تسليمها لقريش خصوصا بعد سيطرة الفرس خصوم الدولة البيزنطية على الحبشة التي كانت توالي بيزنطة [١].

٥- تتخذ كرون من عدم ذهاب الرسول (ﷺ) إلى الحبشة ذريعة لعدم وجود صلة مباشرة لقريش بها .وسوف يلاحظ القارئ أنه عندما كان للرسول (ﷺ) صلة بسوريا كما تؤكد المصادر الإسلامية استقبلتها بشك كبير وأثارت كرون الشكوك حولها ,وعندما لم تكن له صلة بالحبشة طالبت بوجودها ,حقيقة أنه - صلوات الله عليه وسلم - لم يذهب إلى الحبشة, ولكنه أرسل أوائل المسلمين إليها عندما زاد ضغط الكفار عليهم في مكة . ومن المنطق أنه لم يكن من المعقول أن يرسلهم إلى مكان ليس لهم به سابق معرفة ,وإذا حدث ذلك فكيف يمكن ضمان سلامتهم وتأمينهم

(١) الطبري,تاريخ ,ج ٣,ص ٦١ ؛ الحموي,معجم البلدان,مادة الشعيبة ؛ الجاحظ,أبي عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٢٥ هجرية /٨٦٨ م),البيان والتبيين ,القاهرة ,المجلد الأول ١٩٢٦,ص ٢٠٧- ٢٠٨ ؛ وهناك دراسة جيدة قدمها تشارلزوورث Charlesworth منذ مدة طويلة مازالت لها قيمتها وفيها تحدث عن طرق التجارة وتجارة الإمبراطورية الرومانية ,وذكر أسباب عديدة لصعوبة الملاحة في البحر الأحمر وخصوصا في الجزء الشمالي منه ,منها كثرة الشعب المرجانية والرياح الشمالية أغلب السنة,راجع :

Charlesworth (M.P.) Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge , ١٩٢٤,p.٢١,٦٣,٦٦.

هناك ؛ إن المصادر التي أشارت كرون إليها تدل على أن قريشاً كانت تعرف الحبشة معرفة جيدة ,وكانت لها علاقات حسنة مع سكانها .

٦- أبحر المهاجرون مباشرة من الشعيبة بواسطة سفن تقول كرون" من الواضح أنها أجنبية تصادف أنها كانت راسية هناك "[١] , ولا نعرف ما هو الدليل الذي جعلها ترجح كونها أجنبية على الرغم من خلو مصدرها من أي إشارة تستند إليها في هذا الترجيح ؛ ويذكر الطبري التالي :"وفق الله للمسلمين ساعة جاءوا سفينتين للتجار حملوهم فيها إلى أرض الحبشة بنصف دينار", ويؤكد ابن سعد ما ذكره الطبري في هذا الخصوص[٢]. ويتأكد لنا من خلال النص وجود سفن تعمل بين الحبشة والشعيبة بصورة مباشرة ,وإذا كان الأمر كذلك فإذا لم تكن تعمل في النقل التجاري ؛فما هو المجال الذي كانت تعمل فيه ؟؟لقد أكد أن السفن كانت تجارية ؛ وترجيح كرون أن السفن أجنبية يقف معه على قدم المساواة إمكانية

---

(١) Crone ,Op. Cit. ,p.١٢٧.

(٢) رجعنا هنا إلى الطبعة نفسها التي رجعت إليها كرون وهي : مجلد ١,ص ١١٨١ ؛ابن سعد الطبقات , ج١,ص ٢٠٤ ؛وعن ركوب العرب البحر ووصولهم إلى الهند وسيلان قبل الإسلام ,راجع : سحاب , المرجع السابق ,ص ٢٦٦-٢٨٣ ؛و ذكر في دراسته قياساً لسرعة الرياح ,والمدة التي استغرقتها كل رحلة طبقا للمصادر القديمة.

قيام مكة بتأجير السفن من أزد عمان الذين امتهنوا الملاحة –وكانوا يأتون ببضاعة الهند وسيلان إلى موانئ الخليج – لتعمل في تجارتها مع الحبشة ويعزز هذا الطرح ما سبق أن قدمناه من قول الجاحظ أن قريشا كانوا يستخدمون سفنا لحسابهم لنقل التجارة بينهم وبين الحبشة ؛كما لا يمنع ذلك من أن تكون هذه السفن حبشية , لكن أصول البحث التاريخي يوجب توضيح ذلك للقارئ دون الميل إلى ما يشبه التأكيد دون دليل واضح, حرصا على اتباع المنهج السليم, الذي تدعي دائما حرصها عليه دون تطبيقه .

٧ – إن استناد كرون على رفضها تجارة قريش مع الحبشة على أساس عدم معرفة أسماء الأماكن قول ضعيف ,لقد كان اسم الحبشة هو الاسم المتداول لديهم عنها , وما تزال اللغة العربية حتى الآن تطلق اسم الحبشة للإشارة إلى إثيوبيا , لهذا فإن المقصود بالحبشة لم يكن العبيد الأحباش بأي حال من الأحوال ,على الرغم من كثرتهم في مكة ,إلا أن أجناسا أخرى شاركتهم العبودية فيها قبل الإسلام .

٨- حقيقة أننا لم نر قرشيين يقومون بتوزيع بضائع حبشية في سوق عكاظ ,ولا غيرهم كذلك بصورة مباشرة ,ولكننا نتساءل عن كيفية وصول بضائع الحبشة في الوقت الذي تقطعت فيه

طرق المواصلات بين الحيرة والغساسنة في فترة الصراع الذي كان دائرا بين الفرس والروم على طول خط التجارة العرضي الذي كان يَعبر الجزيرة العربية من الشمال الشرقي إلى الشمال الغربي ,من البضائع الإفريقية المميزة مثل ريش النعام وسن الفيل والأبنوس والجلود الثمينة والعبيد وغيرها إلى فارس والعالم البيزنطي أثناء حكم أبرهة لليمن الذي عادى الفرس , أو أثناء حكم ذي يزن وخلفائه الذين عادوا بيزنطة .لقد كانت البضائع الحبشية تصل إلى الشعيبة,فتتولى قوافل قريش بموجب الإيلاف نقل ما تيسر منها وفقا لحاجات الحيرة وفارس وبيزنطة .

٩- يقدم الأصفهاني في الأغاني قيام عمارة بن وليد المخزومي وعمرو بن العاص بن وائل السهمي بالتجارة في الحبشة واتصالهما بالنجاشي , ما ينفي أن قريشاً كانت تنتظر فقط وصول تجارة الأحباش إليها [١] .

١٠- ويلاحظ القاري هنا استخدام اصطلاح الشتات (diaspora) أكثر من مرة عند الحديث عن التجارة القرشية في اليمن ,الأمر الذي لا يصح استخدامه في مجال التجارة ,لأنه لو صح فيجب تطبيقه على كل تجارة الحقبة الزمنية بلا استثناء , إنها محاولة

---

(١) الأصفهاني , الأغاني ,ج٩,ص ٥٥ وما يليها.

لإلصاق هذه الصفة غير الحقيقية بقبيلة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو أمر خال من الصحة .

ويتضح مما تقدم أن كرون لم تقدم لنا دليلا واحدا قويا يؤيد ما ادعته من رفضها لما ذكرته المصادر الإسلامية عن صلة قريش مع الحبشة والتجارة معها.ويرجع السبب في عدم توصيف تلك المصادر لهذه التجارة بصورة تفصيلية, إلى أنها لم تكن لها صلة مباشرة بالأحداث السياسية الخاصة بظهور الإسلام التي يتحدثون عنها,وعلى الرغم من ذلك فقد تناثرت منها في كتاباتهم ما يؤكد قيام التجارة بين مكة والحبشة .

في ختام مناقشة هذا الموضوع يمكن تقديم الحقائق الآتية:

إن افتقار مكة لمصادر الزراعة والرعي كان حافزا قويا على عملها في ميدان التجارة ,بينما توافر لمدينتي الطائف و المدينة – يثرب – ظروفٌ مناخية أفضل هيأت لهما مصادر أفضل للعيش . وكانت قريش تمتهن التجارة منذ زمن بعيد ,وسبق أن رجحنا أن قريشاً ربما تكون قد حملت لقبها من عملها في هذا الميدان منذ القرن الثالث على الأقل . وبعد قيام قصي بتنظيم إدارة مكة وتوطيد الأمن ورعاية الحجاج لتأدية مناسكهم فيها ذاع صيتها بين القبائل العربية . كما هيأت الظروف الدولية الفرصة لمكة لتلعب دورا في

التجارة الشرقية عندما انتقلت خطوط التجارة إلى الجانب الغربي وتتلخص هذه الظروف في الآتي :

- أدى نشوب المنازعات المستمرة بين الدولتين الكبيرتين , الفرس والروم إلى عرقلة التجارة الشرقية .
- نتج عن النزاع الذي نشب بين مملكتي الحيرة والغساسنة الذين أنشأتهم القوى المتصارعة على حدودهما تأجيج النزاع بين الفرس والروم , وأدى الصراع بينهما إلى دفع طرق التجارة إلى غرب الجزيرة العربية .
- تدهورت أحوال العرب في الجنوب بسبب غزو الحبشة لبلادهم ,وانشغال أبرهة الحبشي بتوطيد أركان حكمه فيها بعد نزع الحكم من حكامها العرب ومن ملك الحبشة بعد اغتصابه الملك منه, بجانب خيبة الأمل التي أصيب بها بعد فشله في غزو مكة .
- صعود نجم مكة بعد هزيمة أبرهة فيها , واحتلالها قمة الهرم القبلي في شبه الجزيرة العربية ,ولاشك أن الوضع انعكس بقوة على تجارتها ,وأصبحت تمثل ملتقى للطرق الثلاثة التي سلكتها التجارة الشرقية (طريق شرق الجزيرة ,وطريق الجنوب , وطريق البحر الأحمر) لنقل البضائع .تمثل الطريق الأول في وادي الرمة ووادي الدواسِر ,وكان عرب البحرين يأتون إليها بتجارة الشرق بعيدا عن

طريق الفرات الذي دارت حوله المعارك الحربية . أما الطريق الثاني فقد بدأ المكيون ينظمون عليه قوافل مُنظمة بعد أن كانوا يعاونون تجار اليمن بقوافلهم ,كما نجح تجار مكة في أن يجذبوا للشاطئ الأسيوي من البحر الأحمر تجارة أفريقيا ليقوموا بحملها إلى الشمال, نظرا لانتشار القرصنة فيه وخطورة شعابه المرجانية .ولاحظت كرون أن آخر سفينة وردت من الحبشة أو من اليمن ترجع لعام ٥٧٠م(١), ولم تذكر لنا من الذي قام بنقل التجارة بعد ذلك؟ .

- دفع نظام المراقبة على الحدود بين فارس والروم إلى محاولة التجار التهرب من دفع الرسوم الجمركية إلى إيجاد طرق بديلة ,أو توفير جزء منها على الأقل بدفعها لطرف واحد بدلا من الطرفين .
- يأتي في مقدمة هذه العوامل جميعها استعداد مكة الذاتي الذي حسم المنافسة لصالحها حين توفرت الظروف الدولية التي سبق عرضها : استطاعت مكة أن تستثمرها لصالحها بالوقوف على الحياد في الصراع الدائر بين الفرس والروم في المنطقة ؛ لأن الفرس كان من صالحهم بيع البضاعة الشرقية التي تصلهم ,وكانت بيزنطة في حاجة لهذه البضائع ,لكن ظروف الحرب التي كانت سجالا بينهما قطّعت الطرق ,ولما كانت بيزنطة قد فشلت في الاستيلاء على

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٤١.

مكة من خلال حملة أبرهة ,لذلك لم يكن هناك بد من ترك التجارة العربية في يد قريش , ولذلك حصل هاشم على كِتاب من قيصر الروم يسمح له بالتجارة مع سوريا , ونظم رحلتي الشتاء والصيف لقريش ,وحشد وسائل النقل,ووثق المواثيق مع ملوك الأطراف ,وهو العنصر الذاتي المهم الذي فشلت فيه كل من الحبشة واليمن والحيرة في توفيره ,فانتصرت مكة في المنافسة ,واستطاعت وحدها أن تستفيد من الظروف الدولية الملائمة.وأصبح شيوخ القبائل العربية على طول الطريق التجاري شركاء في تجارة مكة بمقتضى الإيلافات التي عقدها هاشم وإخوته معهم ,وأصبحت مهمة تأمين قافلة قريش في أراضيهم تقع على عاتقهم ,لأن تجارة قريش باتت تجارتهم أيضا .إضافة إلى ما تقدم فقد تسنى لمكة أن يكون رجالها في هذه المرحلة ممن يتصفون بصفات رجال الدولة من حلم وحكمة وحصافة وكظم للمشاعر ؛ لذلك تمكنت قريش من زعامة العرب دون منافس أو منازع[1].

ولكي تكتمل الصورة لابد من أن نوضح حقيقة هذه القوافل التي كانت تحمل التجارة ,ومكنت أهل مكة من تحقيق ثروات ضخمة منها . فقد وصل قوام القافلة في بعض الأحيان إلى أكثر من

(١) راجع سحاب ,المرجع السابق ,ص ٢١٩-٢٢٦.

ألفي بعير,يحمل كل منها حمولة تبلغ مائتي كيلو جرام وأكثر, يتقدمها كشافة الطرق ,ومن حولها الحراس ,وكانت تنزل في محطات محددة لها في أيلة وغزة وبُصرى في الشام لكي تضمن الحكومة البيزنطية حصولها على نصيبها من الضرائب,وتذكر كرون أنه كان يوجد على هذا الطريق من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب خمسة وستون محطة ينزل التجار للراحة فيها ,وكانت سوق الحيرة أحد المنافذ المهمة للعطور اليمنية ,فقد خرج الحَكم بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس ومعه عطر يريد الحيرة ,وكان بالحيرة سوق يجتمع به الناس كل سنة[١]. وكان متجر نوفل بن عبد مناف في العراق .وعَقَّب ابن حبيب على ضخامة قوافل الإيلاف بقوله "وكان كل من هؤلاء –أي قادة القوافل – رئيس كل من يخرج معه ممن يتجر في وجهه " ما يؤكد أن تجارة هؤلاء لم تكن تجارة تجزئة لبائع متجول في المناطق العربية المحيطة أو مع الزبائن العاديين في جنوب سوريا.ويوضح أهمية تجارة العطور اليمنية في العالم القديم ما ذكره المرزوقي عند حديثه عن سوق عدن بأن "طيب الخلق جميعا بها بسبأ . ولم يكن أحد يحسن صُنعه من غير العرب ,حتى أن تجار البحر لترجع بالطيب المعمول تفخر به في السِند – الهند –

---

(١) الأصفهاني , الأغاني ,ج ١٦,ص٩٥ .

وترحل به تجار البر إلى فارس والروم "[١]. لقد حدَّدَ المرزوقي في هذا النص تجار البحر الذين يبدو أنهم الهنود والعُمانيون ,أما تجار البر فهم العرب دون شك ,ومنهم قريش قائدة قوافل الصحراء البرية في الجانب الغربي من الجزيرة العربية في القرن السادس الميلادي , والذين لا شك في قيامهم بدور مهم في المجال البيزنطي ,ففي رحلة الشتاء يجلبون البضائع العربية الجنوبية ومن بينها العطور والبضائع الشرقية ,ويحملونها إلى مكة لتأخذ السوق المحلي حاجتها منها ,ثم يواصلون حمل ما تبقى منها في قافلة الصيف إلى الشمال إلى سوريا, ولا يتعارض مع ذلك معرفة العرب للعطور البيزنطية التي كانت لها أسواقها في بلادهم والتي جلبها اليهود إلى المدينة المنورة في عهد الرسول (ﷺ) ، وهو أمر معروف في عملية التبادل التجاري في كل زمان ومكان لاختلاف أذواق البشر ومستوياتهم الثقافية والمادية .

لقد حقق المكيون ثروات ضخمة من عملهم في التجارة العالمية, وعلى سبيل المثال: جمع حكيم بن حزام ثروة ضخمة من التجارة مَكنته من عتق مائة رقبة في الجاهلية في يوم عرفة ,ونحر مائة بدنة يوم النحر ,وقام بنفس الأمر عندما اعتنق الإســلام . وجمع أبو بكر الصديق من عمله في التجارة ثروة بلغت أربعين ألف درهم , أنفق

---

(١) راجع ما تدعيه كرون من أن التجارة العربية كانت تجارة تجزئة في: Crone ,Op. Cit. p.١٣٤. ؛ المرزوقي ,الأزمنة ,ج٣,ص ١٦٤ .

منها خمسة وثلاثين ألفًا في شراء الرقيق الذين دخلوا في الإسلام ليخلصهم من عذاب كفار مكة , وكان عبد الله بن جدعان (حاسي الذهب), رئيس تميم من أغنى أغنياء مكة الذي جمع شِقا كبيرا من ثروته من التجارة .ومنهم أيضا أبو سفيان بن حرب الذي كان من كبار تجار مكة ,وكان يمول ويجهز تجارها,وبلغت قيمة قافلة أبي سفيان قبل معركة بدر حوالي خمسين ألف دينار , ساهم فيها أبو أُحَيحَة سعيد بن العاص بثلاثين ألف دينار بمفرده ,واشتهر الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر من مخزوم ثري أثرياء بني مَخزوم بأنه كان فاحش الثراء ولقب "بالعدل "لأنه كان يعدلُ قريش كلها ثروةً تقريبا ,فكانت قريش تكسو الكعبة عاما ,ويكسوها الوليد وحده عاما آخر[١] . ولم يكن هذا الثراء بالشيء الجديد على العرب فقد سبق وذكر بليني "أن العرب أغنى أمم العالم طرا ,لتدفق الثروة من روما وبارثيا (فارس) إليهم ,وتكدسها في أيديهم ,فهم يبيعون ما يحصلون عليه من البحر ومن غاباتهم — يقصد البخور والمر — ولا يشترون شيئا مقابل ذلك"[٢]. حقيقة أن هذا القول وإن كانت فيه مبالغة فإنه يعكس أوضاع القرن الأول الميلادي ويشير إلى تجار سبأ,إلا أن هذه الأوضاع عادت إلى قريش من جديد في القرن

---

(١) عن ثراء كبار التجار العرب راجع : سلامة ,المرجع السابق ,ص ٢٤٥-٢٧٥ والمصادر المذكورة لديها .

(٢) Pliny ,NH. p.٤٦١.

السادس. وعلى ذلك فإن النتائج الثلاثة التي وصلت كرون إليها في مقدمة الفصل السادس ، وهي :

الأول : إن تجارة قريش لم تكن تجارة ترانزيت .

الثاني : إن بضاعتها لم تكن من النوع الذي يمكن أن يُغري سكان مصر والهلال الخصيب .

الثالث : أنها لم تكن من البضائع التي يمكن أن تَفرِض سيطرتها على الطرق التجارية في بلاد العرب .

ثبت عكسها , واتضح أن الحقيقة تخالف ما قدمت ,وكان التشكيك في موقع مكة,ونفي قيام حج لبيتها المقدس ,وادعاء وجود معبد كبير في الشمال يتجه إليه العرب ,ونفي تجارة قريش الدولية التي كانت تنطلق من مكة ,كل ما سبق كان مقدمة للادعاء بوجود مركز لقريش في الشمال وبالتالي للرسول(ﷺ) وللدعوة الإسلامية, وهو الموضوع الذي سنقوم بمناقشته لاحقا .

المحور الرابع

مركز الدعوة الإسلامية

الادعاء بوجود مركز في شمال الجزيرة ظهرت فيه الدعوة الإسلامية

إن الادعـــاء بوجود مركز في شمال الجزيرة العربية ظهرت فيه الدعوة الإسلامية ,كان من نسج الخيال - كما سبق توضيحه - , وكان تمهيدا لما هو أخطر من مجرد نفي ظهور اسم مكة المكرمة لدى الكتاب الإغريق والرومان منذ القرن الثاني الميلادي -لأن ذلك لو وجد , وهو لم يوجد - يُعد تقصيرا في المصادر ؛ لأن وجودها حقيقة ثابتة ؛ أو من نفيها اتجاه حج العرب إلى كعبتها قبل الإسلام, والتشكيك في تجارة قريش الدولية قبل الإسلام ,لأن الهدف الأصلي لهذه الدراسة هو التشكيك في المصادر الإسلامية وعلى رأسها ما جاء في القرآن الكريم عن مكة ووجود البيت الحرام فيها منذ رفع بناءه إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام - ؛ بادعاء وجود مركز في شمال الجزيرة العربية ظهر فيه الرسول (ﷺ), بدأت منه الدعوة للدين الإسلامي على غير ما هو ثابت ومؤكد .

تبدأ كرون قولها :["لم يذكر في أي مكان أن قريشا أو ملوك

العرب كانوا هم الأفراد الذين اعتادوا أن يقوموا بتغطية البلاد بهذه البضائع .وعرف فقط أن محمدا (ﷺ) هو نفسه كان تاجرا ,وأن المدينة التي كان من المفروض أن يرد ذكرها كانت هي مدينة يثرب , وليس مكة التي لم يرد لها ذكر لمدة طويلة ,بل إن المصادر التي ذكرت بيتها قد فشلت في ذكر اسمها ,بينما فشل المصدر الأول الذي ذكر اسمها في تحديد موقعها في بلاد العرب .,وعرف يعقوب الإيديسي أن الكعبة هي المكان الذي يتجه إليه المسلمون في صلواتهم ,وهي تقع في مكان قريب لموكا (Moka) – في البتراء – التي ذكرها بطلميوس ,أكثر من مكة الحالية ,أو بمعنى آخر أبعد شمالا من روايات الصحابة في عصر الإسلام ,أما المعنى التجاري لهذا المكان فمن الواضح أنه كان يجهله تماما . ولكن أيا كان معنى هذا الدليل بالنسبة لتاريخ بيت المسلمين فإن مركز قريش التجاري لم يكن هو المكان الذي كانت له شهرته بين المسلمين]"(١).

لم تكتف كرون بما سبق بل أضافت إليه الآتي :["أما فيما يتعلق بوجهة النظر الخاصة بظهور الإسلام فيمكن إعادة ترتيب المشكلة على النحو الآتي : يبدو أننا سنرجع جميع أركان سيرة محمد (ﷺ) إلى شمال غرب العربية .وهنا ستصبح التجارة أكثر حيوية ,بل

Crone ,Op. Cit. p.١٣٧. (١)

أكثر وضوحا وأهمية في واقع الأمر ,دون أن يكون لها امتداد نحو جنوب الجزيرة العربية والحبشة .وإذا كان هناك ثمة مركز تجاري لقريش في الشمال ,فسوف نضع هذا المركز في مكان موكا (Moka) التي ذكرها بطلميوس ,وهي تقع إلى الشمال بعض الشيء فقد كان يوجد معبد في الصحراء له أهمية لجميع العرب كما قال نونوسوس(Nonnosus) . فمكة كانت في الأصل معبدا في الصحراء كما قال الكلبي, ويبدو أنه كان أحد الأبنية التي تذكر الروايات أن معاوية شمله بنشاطه العمراني هناك ,ويبدو أن المعبد الذي حوله إلى مدن وقصور كان يقع في شمال العربية ,كما ثبت وجود جماعات يهودية في شمال غربي العربية .بل وثقت عقيدة التوحيد الإبراهيمية هناك ,إن النبي الذي أتى بديانة جديدة انبثقت من هذه العقيدة كان هو نفسه تاجرا في شمال غرب العربية . هذا على الرغم من أن كل ما قدر له أن يدور من الأحداث حدث إلى الجنوب بعض الشيء في مكان وصف على أنه معبد مقدس لمدينة , سُكنت منذ تاريخ غير معروف ,وتقع كما ذكرها بعضهم في منطقة غير عادية خالية من الزرع ,خاصة بقبائل جنوبية مثل جرهم وخزاعة ,ولها صلات مع كل من اليمن والحبشة , وتتزين ببناء يضم

صنم هُبل وكهنته "][١].

وتعقيبا وتعليقا على ما سبق نتساءل؟

١- ما هو المقصود بقولها : إن أحدا لم يذكر أن قريشا كانوا هم الأفراد الذين اعتادوا أن يقوموا بتغطية البلاد بهذه البضائع . هل تقصد بذلك المصادر البيزنطية ؟وهل هي المصادر الوحيدة التي يُعتد بها ,بينما يجب إغفال المصادر الإسلامية التي لا يُعتد بها في نظرها؟ إن المصادر البيزنطية لا تذكر شيئا إلا فيما ندر عن الأوضاع الاقتصادية في بيزنطة نفسها عند وجود علاقة بينها وبين حدث سياسي أو عسكري , وهي العادة التي دَرَج عليها الكتاب والمؤرخون في كتابة التاريخ في تلك الفترة المبكرة ,لذلك فإنني أتساءل بدوري على سبيل المثال وليس الحصر : عن المعلومات التي قدموها عن تجارة بيزنطة مع الغساسنة,أو من قبلهم بين الأنباط وتدمر والإمبراطورية الرومانية ؟بينما يوجد مصادر عربية غير قليلة تتحدث عن تجارة قريش وقيامهم بنقل التجارة,على الرغم من أن كثيرا منها ورد الحديث فيها عن التجارة بصورة غير مباشرة,ومع ذلك فهي تغطي كثيرا من جوانبها وتكفي لإعطاء صورة عنها في ضوء إمكانيات العصر .

Crone ,Op. Cit. p.١٩٦-١٩٩. (١)

٢- أما قولها إن المصادر التي ذكرت بيتها فشلت في ذكر اسمها, فهو قول جانبه الصواب ؛ لأن هذه المصادر موجودة ,وهي تعرفها وتتمثل فيما ذكره بليني وبطلميوس وأميانوس ماركللينوس,فقد ورد لديهم اسم بنو جوريس,وماكورابا , والمدينة المقدسة صراحة ,والذين ثبت أن الإشارات المذكورة لديهم كانت تشير إلى مكة ,ولكنها لا تريد الاعتراف بها,بل تثير الشكوك حولها بحجج ضعيفة سبق أن قمنا بتفنيدها وبالرد عليها عند مناقشة المحور الأول من الدراسة .

٣- تقول كرون : " إن يعقوب الإيديسى عرف أن الكعبة هي المكان الذي يتجه إليه المسلمون في صلواتهم ,وهي تقع في مكان قريب من موكا التي ذكرها بطلميوس أكثر من مكة الحالية ,أو بمعنى آخر أبعد شمالا من روايات الصحابة في عصر الإسلام"[(١)] إن موكا التي ذكرها بطلميوس تقع في البتراء العربية ,وهي مدينة داخلية لا ميناء لها ,أما مكة التي تعنينا فقد ذكرها بطلميوس باسم ماكورابا , وذكر ميناءها كما سبق وأوضحنا ,إن كرون هي التي تقترح أنه كان يجب على بطلميوس أن يسميها باسم موكا ,ولكنها هنا تستخدم ما سبق وافترضته على أنه حقيقة ثابتة على عكس الحقيقة.

---

(١) Crone ,Op. Cit. ,p.١٣٧. ؛ وراجع ص ١٤ وما يليها .

٤- لا يلام بطلميوس على جهله بدور ماكورابا التجاري في النصف الأول من القـــرن الثاني الميلادي لسبب بديهي,وهو أن دورها التجاري لم يكن قد اتضح بعد , لقد بدأ النشاط التجاري الواضح لمكة في أواخر القرن الخامس ومطلع القرن السادس ونشط فيه ,بينما كتب بطلميوس في النصف الأول من القرن الثاني الميلادي ,فلماذا تلومه على شيء جاء بعد العصر الذي عاش فيه ؟

٥- تقترح كرون "أنه في حالة إرجاع جميع أركان سيرة الرسول (ﷺ)إلى شمال غرب العربية ستصبح التجارة أكثر حيوية , بل أكثر وضوحا وأهمية دون أن يكون لها امتداد نحو جنوب الجزيرة العربية والحبشة "ثم بعد ذلك تأخذ هذا الاقتراح الذي قدمته وتضيف عليه قولها إنه ."لما كان القرآن (الكريم) هو المصدر الوحيد عن ظهور الإسلام ,فإننا قد عرفنا منه عن ظهور الديانة الجديدة التي كان لها علاقة بشخص يُدعى محمداً (ﷺ) ادعى أنه رسول الله ,وأن دعوته ظهرت في منطقة ما من شمال غرب العربية يبدو أنها كانت بالقرب من البقايا الأثرية للوط في بلقا ولكننا ليس في مقدورنا أن نقول أي شيء عن الأحداث التاريخية التي أدت إلى قبول رسالته"[١].

---

(١) Crone ,Op. Cit. ,p٢٠٤.

لقد لعب الخيال دوراً مسرحيًا واضحاً في هذا المجال ؛إذ نجدها تؤلف الأحداث وتنسج خيوطا لها من خيال خصب يَصلح لتأليف قصة, وليس للقيام ببحث تاريخي .إنها بوصفها النبي (ﷺ)بأنه (ادَّعى أنه رسول) وضعت نفسها موضع الخصم وليس الباحث, لقد رفضت فيما سبق دور مكة التجاري ,ضاربة عرض الحائط بإصرار بكل المصادر التي أشارت إليها,ولكنها هنا تعترف ضمنا بدورها , ولكنها ترى أن دورها كان يمكن أن يكون" أكثر حيوية " ,لو أرجع إلى الشمال . وتقدم بعد ذلك مقترحات شاذة ما تلبث أن تعرضها لنا على أنها حقائق ثابتة ,دون مراعاة لأبسط قواعد البحث التاريخي. فهي تقول إن دعوة الرسول (ﷺ) " ظهرت في منطقة ما من شمال غرب العربية يبدو أنها كانت بالقرب من البقايا الأثرية لقوم لوط في بلقا,ولكننا ليس في مقدورنا أن نقول أي شي عن الأحداث التاريخية التي أدت إلى قبول رسالته". وهنا نراها تضع هذا المركز التجاري في موكا التي ذكرها بطلميوس والتي تقصد بها مكة على غير ما ذكر,وتقرنها بالمعبد الذي ذكره نونوسوس,وسبق الحديث عنه- في مناقشة المحور الأول من الدراسة-, وتقول إن الكلبي يذكر أن مكة في الأصل معبد في الصحراء,متناسية أن غالبية بلاد العرب صحراوية , وغالبية معابدها

تقـع بالتـالي في الـصحراء ,علـى حـين أن المعبـد الـذي يـشير إليـه نونوسوس فيه ما يرجح إشارته إلى بيت مكة , نظرا لموقعه خلف جبـال طـئ مـن جهـة, ,والإشـارة الـتي وردت في نـص إبيفـانيس Epiphanes إلى الأشهر الحرم الأرجح أن المقصود بها الإشارة إلى بيت مكة . وإذا كـان هـذا المعبـد الـشمالي الـذي أشـارت إليـه كرون في الفصل السادس له مكانة كبيرة بين العرب كما تـدعي ,ألم يكـن مـن الأجـدى لأبرهـة الحبـشي أن يُـسَيِّرَ حملتـه لهدمـه حتـى يصرف العرب عن الحج إليه بدلا من بيت مكة المعروف والثابت تاريخيا ؟

بعد أن أوجدت كرون لدى القارئ شبهة معبد رئيس غـامض في الشمال يحج إليه العرب ,انتهزت فرصة قيام معاوية بن أبي سفيان أول خلفـاء بـني أميـة بـبعض عمليـات التـشييد والبنـاء في دمـشق عاصـمة الخلافـة الجديـدة والأمـاكن القريبـة منهـا وحولهـا ,لمواصـلة الـضغط النفسي علـى القـارئ فأوحـتْ لـه بـأن البنـاء والتـشييد قـد جـاءت فـوق ذلـك المعبـد الـذي تدعيـه بعـد هدمـه لتكتمـل القـصة الخياليـة الـتي قامـت ببنائهـا ونـسج خيوطهـا ,والخطـأ الأكـبر الـذي وقعت فيه هنا أن في الإحالـة إلى المـصادر الـتي اعتمـدت عليهـا نجـد أن جميعهـا خاصـة بمكـة ,ولـيس فيهـا مـن قريـب أو بعيـد مـا يتعلـق

بذلك المعبد الذي يقع في الشمال ؛ وتضيف على ما تقدم أنه كان من المفترض أن تظهر الدعوة الإسلامية في المدينة – تقصد يثرب- وليس في مكة ,وذلك ما يؤكد على الأخطاء الواضحة التي وقعت فيها لهدف واضح تسعى إليه.ولو كانت هذه هي الطريقة التي تعالج بها القضايا التاريخية لأصبح في إمكان أي فرد ولا أقول مؤرخ -لأن البحث التاريخي له شروط متفق عليها- أن يلغي أعظم التواريخ.

واستكمالا للحلقة التي بدأتها في هذا الموضوع تقوم بربطه بالإشارة إلى ["أن إبراهيم(عليه السلام)الذي وَرَّثَ عقيدة التوحيد لنسله من العرب قد ثبت وجودها في شمال غرب الجزيرة العربية ,منذ فترة مبكرة ترجع إلى القرن الخامس في المصادر اليونانية, ولذلك فليس من المستبعد أن تكون قريش قد اختارت نسب إبراهيم وعقيدته حتى قبل الإسلام "][١] . وما توحي إليه كرون هنا الادعاء بأن الإسلام مأخوذ من العقيدة الإبراهيمية.والواقع أن إثبات المصادر اليونانية لوجودها في شمال شبه الجزيرة منذ القرن الخامس قبل الميلاد يُحسب لقريش لا عليها ؛لأنه يؤكد على معرفتهم بها, وهي الحقيقة التي كثيرا ما رددتها المصادر الإسلامية قبل الإسلام ,وكان يرددها يهود المدينة ؛كما أن وجود الجماعات

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.١٩٠.

اليهودية في شمال غرب الجزيرة العربية ,أمر معروف ؛ لأن الطريق التجاري الشمالي كان يتجه إلى البحر المتوسط ويمر عبر فلسطين إلى غزة ؛كما وثقت عقيدة التوحيد الإبراهيمية في مكة من خلال المصادر الإسلامية ,والحج الإبراهيمي فيها كان من بقاياها ,وقَسَمُ العرب بالله ,واستخدام اسمه تعالت قدرته في تسمية الأشخاص مثل : عبدالله , عبدالمطلب ,عبد الحكم .... الخ دليل على ما نقول ,وعَرف العرب الأشهر الحرم وحافظوا على حرمتها بصورة عامة في الجاهلية ,كل ذلك كان من بقايا عقيدة التوحيد الإبراهيمية التي خلطوها بكثير من مظاهر الوثنية .ويرجع السبب الأساسي في هذا الخلط , للسبب نفسه الذي أدى إلى خلط جميع الرسالات السماوية قبل الإسلام بالمظاهر الوثنية , والمتمثل في الجهل لعدم شيوع القراءة والكتابة من جهة , وتدخل الكهنة في تحريف العقائد السماوية من أجل مصالحهم الخاصة ومصالح سادتهم الدنيوية من جهة أخرى .

والصحيح أن جميع الرسالات السماوية منبعها واحد, وهو الله سبحانه وتعالى , وركيزتها الأساسية التسليم لله الواحد الأحد , والخضوع لأوامره جل شأنه, لإقامة المجتمع الإنساني الصالح . وتضمنت جميع الرسالات السماوية الجانب الأول ؛ أما الجانب الثاني فقد نزل من المولى- سبحانه وتعالى- على مراحل , تتفق كل

مرحلة منها والمستوى الفكري والحضاري الذي بلغته الحضارة الإنسانية زمن الرسالة السماوية ,والتي اشتركت جميعها في صفة المحلية .أما الإسلام ففيه تكاملت جميع أركان التشريع للمجتمع , ومن هنا جاءت صفته العالمية, لتكامل التطور البشري منذ ذلك الحين وتوافر وسائل الحفظ والتسجيل الكامل للقرآن الكريم والحديث الشريف والسنة المُطهرة .

إن الشيء الذي لا نفهمه لماذا هذا الخلط بين الأشياء والقيام بالنسج الصناعي بينها لتغيير الأحداث والأماكن والمواقع ,فماذا كان يضير المؤرخين والكتاب المسلمين في ذكر الأحداث لو كانت قد حدثت بالشكل الذي ادعته ؟ إن ذلك لم يكن يقلل أو يضيف شيئا على الأحداث التي ارتبطت بظهور الإسلام,فلو قدر لبداية الأحداث الظهور في الشمال لما وجدوا ضيرا في الإشارة إلى ذلك ,وهل تتواطأ أمة في مصادرها وعبر العصور على تثبيت حدث مخالف للحقيقة؟لقد أشارت المصادر الإسلامية إلى زيارة الرسول (ﷺ) مرتين إلى سوق مكة التجاري في الشمال,وإلى هجرة المسلمين الأوائل إلى الحبشة ,وهجرة الرسول (ﷺ) إلى المدينة ,كما ذكروا جميع الأصنام وبيوتها القاصي منها والداني ,فلماذا يخفون بيتا واحدا فقط لو كان له وجود كما تدعي كرون ؟؟؟ لقد أظهرت

دائما دأبا على التدقيق ولكنها حرفته جميعه, وصبته في قالب التشكيك في المصادر الإسلامية, وهو الأمر الذي سوف يظهر لنا عند تقديم القضية الآتية, قضية تاريخ معركة بدر , المعركة العسكرية الأولى بين المسلمين والكفار التي أشار إليها القرآن الكريم , ونصر فيها الله - سبحانه وتعالى- الإسلام والمسلمين .

المحور الخامس

تاريخ معركة بدر

تقول كرون Crone :] "إن عدم وجود تتابع في نقل الرواية- الإسلامية - يُعد نقطة جوهرية سوف أقوم بإثباتها فيما يخصُ المصادر الخاصة بمعركةِ بدر . إن تاريخ هذه المعركة يوضح الدور الذي لعبه القرآن — الكريم- في المعلومات التي استخدمتها الرواية عند القيام بجمعها لكتابتها .وربما يكون رواة القصص هم الذين قاموا بذلك أو ربما كان غيرهم . ويرجع السبب في ذلك للمغزى الأخلاقي في كلتا الحالتين : وحيث وجدت معلومات جديدة ,فذلك يعني فقد معلومات سابقة.

ونتساءل الآن عن تاريخ معركة بدر ؟إن الروايات تتفق اتفاقا تاما على أنها وقعت في شهر رمضان في السنة الثانية . والأمر الذي يعنينا هو تاريخ الشهر ,وقد تأكد هذا الشهر من القرآن — الكريم- من الناحية الظاهرية : وذكر الشهر على أنه شهر الفرقان (٢ : ١٨١)[١] ﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ (٨ : ٤٢)[٢] . وقام الرواة الموثوق بهم بمطابقته بمعركة بدر . إن إجماع آراء العلماء

---

(١) رقم الآية المذكورة هنا خطأ ,والصحيح : الآية الكريمة رقم ١٨٥من سورة البقرة.

(٢)﴿يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ﴾ , رقم الآية المذكورة هنا خطأ أيضا,والصحيح : الآية الكريمة رقم ٤١ من سورة الأنفال .

إضافة إلى التأكيد الواضح في القرآن (الكريم) يؤكد أن الشهر الذي حدثت فيه وقائع معركة بدر يُعد من الحقائق القليلة المؤكدة في تاريخ الإسلام المبكر .وفي الواقع فإن هذا الموضوع ليس على درجة كبيرة من الأهمية في حد ذاته .فإن صحة التاريخ المحفوظ لهذه الحادثة المبكرة سوف يثبت صدق الرواية التاريخية بصفة عامة ولكن هناك جانبا ضعيفا في النقاش الدائر, يتمثل في أن القرآن نفسه لم يطابق يوم "الفرقان " بمعركة بدر ؛ لأن الفرقان الذي أنزل في شهر رمضان لا ينطبق على معركة بدر إلا بصعوبة .ويمكن أن يقول المتشككون بأن القرآن هو أبعد ما يكون عن التاريخ الذي ذكرته الرواية لمعركة بدر, الذي استنبطته من الناحية العملية .وكان يقف أمام معارضتهم حتى العصر الحالي إجماع الرواية .

وفي عام ١٩٥٦م قام جرومان (Grohamann) بنشر وثيقة بردية ترجع إلى القرن الثامن عَثر عليها في خِربة المِرد (Khirbat al- Mird) في فلسطين,وهي عبارة عن قصاصة ممزقة (fragment). وأخطأ جرومان في قراءتها في عدة نقاط , وحتى بدون هذه الأخطاء فإن البردية تقدم لنا تاريخا آخر لمعركة بدر. تبدأ البردية بذكر عدة أسماء : واقد بن عبد الله بن عدي بن كعب , ومغيرة والحكم .وأمكن قراءة هذه الأسماء بسهولة في البردية بعد ترميمها .ويذكر في السطر السادس تاريخ أربعة عشر

شهرا من محرم ,ثم تذكر البردية أنهم خرجوا إلى بدر ,وفي السطر السابع "أنهم تقابلوا في بدر "ثم تذكر تاريخ الثامن عشر من المحرم , ويذكر في السطر الأخير : محمد,مكة ,قريش وشخص يدعى ماجد"] (١).

نرى من النص الذي قدمته كرون أعلاه انها استخدمت هذه الوثيقة كالعادة في التشكيك في المصادر الإسلامية ,وهنا على وجه التحديد فيما ذكره القرآن الكريم عن تاريخ معركة بدر .وبدأت بإثارة الشك حول الرواية الإسلامية ؛ والمعروف أن معركة بدر تُعد من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي,وورد ذكرها في سورة الأنفال (الآية٤١),التي ذكرتها كرون خطأ ,وطابق القرآن الكريم شهر الفرقان بشهر رمضان كما جاء في سورة البقرة (الآية : ١٨٥), التي أخطأت كرون في الإشارة إليها كما سبق توضيحه . وقد وجدت كرون صعوبة بالغة في مطابقة شهر القرآن بشهر رمضان بقولها : "إن القرآن (الكريم) لم يطابق "يوم الفرقان "بمعركة بدر ؛ لأن الفرقان الذي أُنزل في شهر رمضان لا ينطبق على معركة بدر إلا بصعوبة "(٢).

قامت كرون بعد ذلك بإلقاء مزيد من الشك حول تاريخ المعركة مستخدمة هذه البردية على النحو الآتي :

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٦-٢٢٧.
(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٦.

أولاً : تقول كرون : ["المعروف أن هناك ما لا يقل عن ثلاث معارك وقعت في بدر , الأولى لفترة قصيرة ولم يحدث فيها اشتباك ,والثانية هي التي حدث فيها قتال Badr al-qital أو هي المعركة المعروفة ,والثالثة لا تعنينا في هذا المجال "](١).

ثانياً :[" إن اسم الشهرة لمعركة بدر الأولى هو غارة صفوان – تكتب أحيانا سفوان– , وهي تمثل فترة من فترتين تضم كُرز بن جابر ورعي الجمال في المدينة , كما لم يأت هنا ذكر لأي من : واقد ,وعدي بن كعب ,والمغيرة أو الحكم فيما يخص تلك الحقبة من المصادر الكلاسيكية"] (٢).

ثالثاً : تضيف قولها إن : [" المعروف أن معركة بدر الكبرى سبقتها غارة على نخلة , وفيها تمكن رجال محمد (ﷺ) من الاستيلاء على قافلة مكية كانت في طريقها إلى الطائف ,وكان من ضمن المشاركين فيها واقد بن عبد الله بن عامر بن ربيعة , وعدي بن كعب من جانب محمد (ﷺ),وعثمان بن عبد الله بن المغيرة مع الحكم بن كيسان من الجانب المكي,لذلك ليس هناك شك – من أن هذه البردية تصف الغارة على نخلة التي أعقبتها غزوة بدر. وعلى ذلك

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٧.

(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٨. ؛ وردت كتابة اسم صفوان بالشكل التالي "سفوان" لدى ابن هشام ج١ ,ص ٦٠١-٦٠٢ .

فإن هذين التاريخين المذكورين يمثلان إما تاريخ غارة نخلة وغزوة بدر على التوالي أو تاريخ معركة بدر وحدها . وإذا كان الأمر الأول صحيحا فهـذا يعني أنه أصبح لدينا تاريخ محرف لغارة نخلة,والآخر لغزوة بدر . وإذا كان الأمر الثاني هو الصحيح فمعنى ذلك أنه لدينا تاريخان محرفان لمعركة بدر"][١] .

رابعاً : تواصل كرون مناقشتها بقولها بأنه ["من المفروض أن معركة بدر لم تقع في الشهر الرابع عشر أو الثامن عشر (أي من هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة),ولكنها وقعت في الشهر الواحد والعشرين منه .وإذا قمنا بحساب ١٨ أو ١٤ شهرا من المحرم فإننا نصل إلى شهر صفر وجمادى الآخرة أو ربيع الأول ورجب ,ويعتمد ذلك على قيـامنا بضم شهر المحرم من عدمه في عملية الحساب وهنا لا نصل إلى شهر رمضان "][٢] .

خامساً :["سوف نفترض أن رأي أبوت Abbot صحيح, وأن كاتب البردية بدأ الحساب من شهر ربيع الأول وهو شهر الهجرة ,وإذا قمنا بعد أربعة عشر شهرا منـه فلن نصل إلى الشهر الصحيح لمعركة بدر الأولى ,ويظل لدينا معركة بدر الثانية , وإذا قمنا بحساب ثمانية عشر شهرا من ربيع الأول فسوف نصل إلى شهر

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٨-٢٢٩.
(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٧.

رمضان وهو الشهر الصحيح لمعركة بدر الثانية على شرط أن نقوم بحذف شهر ربيع أول من الحساب ,ولم يقم الواقدي بعمل ذلك ؛ لأن التاريخ الذي يذكره هو الشهر التاسع عشر من الهجرة "][١].

سادساً : [" هناك مشكلة في أن القطعة البردية عبارة عن ثمانية أسطر ,وفي خلال هذه الأسطر الثمانية يخبرنا كاتبها مرتين أنه يقوم بالحساب من المحرم ؛ما يدفع المرء إلى الاعتقاد بأنه يبدأ العد من المحرم , وإذا كان الأمر كذلك نكون أمام كاتب من منتصف القرن الثامن الميلادي كان واقعا تحت تأثير أن المعركة أو المعارك التي عرفت باسم بدر وقعت فيها الحرب في الشهر الرابع عشر أو الثامن عشر من المحرم بمعنى آخر ليس في رمضان"] [٢].

سابعاً :[" وعلى ذلك فإن هذين التاريخين (أي المذكورين في البردية) يمثلان إما تاريخ غارة نخلة وغزوة بدر على التوالي أو تاريخ معركة بدر وحدها. وإذا كان الأمر الأول صحيحا فهو يعني أنه أصبح لدينا تاريخ محرف لغارة نخلة , والآخر لغزوة بدر, وإذا كان الأمر الثاني هو الصحيح ,فمعنى ذلك أن لدينا تاريخين محرفين لمعركة بدر "][٣].

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٧-٢٢٨.
(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٨.
(٣) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٨-٩.

ثامناً :[" اختفى هذان التاريخان من الرواية ؛ ويبدو أن السبب في ذلك يرجع لاستخدام النصوص الدينية لشرح الحوادث التي نعنيها ؛ فإذا كانت حادثة نخلة تشير إلى النص المذكور (٢ : ٢١٤)[١] تكون الغارة قد حدثت في شهر محرم وليس في شهر صفر أو ربيع الأول .وإذا كانت معركة بدر تشير إلى الآية (٢ : ١٨١)[٢],فقد حدثت المعركة في رمضان ,وربما كانت التفسيرات القرآنية هي التي أدت إلى استنباط التواريخ الكلاسيكية مما أدى إلى فقدان التاريخ المبكر لإحداها ."][٣] .

تاسعاً :["إن هذه التواريخ التي فُقدت تركت وراءها أثرا وألقت بعض الظلال على غارة صفوان ؛ لأن حادثة صفوان أوحت بالشهر الرابع عشر أو الثامن عشر من المحرم ,وذلك يتوقف على ما إذا كان شهر المحرم سوف يُضَم لا يُضَمّ إليه .وهذا يعني أن غارة صفوان لم تكن تحمل فقط اسم معركة بدر, ولكنها كانت أسبق من التواريخ الكلاسيكية أيضا . وباختصار فإن غارة صفوان

---

(١) يقول الله سبحانه وتعالي في الآية(٢ : ٢١٤),﴿ أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ﴾. ولا يوجد في الآية الكريمة ما يشير إلى ما تقول كرون ؛ لأن هذه الآية نزلت في غزوة الخندق .

(٢) راجع الحاشية المذكورة ص ١٤٣ أدناه .

(٣) Crone ,Op. Cit. p. ٢٢٩

تقع خارج دائرة التواريخ القرآنية لبدر أو لبدر ونخلة"][١] .

عاشراً :[" إن عدم وجود تتابع في نقل الرواية يُعد نقطة جوهرية . إن تاريخ هذه المعركة يوضح الدور الذي لعبه القرآن (الكريم) في المعلومات التي استخدمتها الرواية عند القيام بجمعها لكتابتها , وربما يكون الرواة هم الذين قاموا بذلك أو ربما كان غيرهم . إن السبب في ذلك يرجع إلى المغزى الأخلاقي في كلتا الحالتين : إن وجود معلومات جديدة يعني فقد معلومات سابقة "][٢] .

الحادي عشر : تختم كرون مناقشة الموضوع بقولها :["لولا العثور على تلك الوثيقة البردية ما أمكننا أن نعرف ذلك أبدا .إن الرواية ترفض مجرد الشك الطفيف حول تاريخ معركة بدر ,وتجمع إجماعا واضحا على أنهم حين كانوا يتذكرون معركة بدر كانوا يتذكرون أنها وقعت في رمضان . وفي الحقيقة أنهم لم يتذكروها قط على أنهـــا كانت كذلك . فقد زودهم القرآن (الكريم) بتاريخ الشهر عند كتابة المعركة ..... فالإجماع لا يشهد على استمرار النقل بل على العكس من ذلك فإنه يؤكد على تراكم المعلومات المفقودة"[٣] . ثم تدعي بعد ذلك "أنه إذا لم يأت التصويب من خارج

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٩.

(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٦.

(٣) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٩-٢٣٠

الرواية (الإسلامية),مثل تلك البردية التي لدينا ,أو من خلال الأدلة الأثرية والمصادر غير الإسلامية ,فليس لدينا إلا أمل طفيف في إمكانية إعادة الشكل الأصلي لهذه الحقبة المبكرة "][١].

وقعت كرون في مناقشة هذه القضية في أخطاء تاريخية واضحة, وسوف نبدأ قبل القيام بمناقشتها بتقديم ما تذكره أقدم المصادر الإسلامية عن معركة بدر ؛ونص القصاصة البردية المهلهلة التي تريد أن تستخدمها ضد ما ذكر عن تاريخ معركة بدر الذي أجمعت عليه المصادر الإسلامية دون استثناء ,ويأتي فوق الجميع القرآن الكريم ,وحتى تتضح الصورة أمامنا نقف على الآتي :

أولاً : يذكر ابن إسحاق : " ولم يقم رسول الله (ﷺ) بالمدينة حين قدم من غزوة العشيرة ليالي قلائل لا تبلغ العشر ,حتى أغار كُرْزُ بن جابر الفهري على سرح (الإبل والمواشي التي تسرح للرعي) المدينة , فخرج رسول الله (ﷺ) في طلبه ..... حتى بلغ واديا يقال له سفوان (صفوان),من ناحية بدر ,وفاته كرز بن جابر ,فلم يدركه, وهي غزوة بدر الأولى ,ثم رجع رسول الله (ﷺ) إلى المدينة , فأقام بها بقية جمادى الآخرة ورجب وشعبان[٢].

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٣٠.

(٢) ابن هشام ,ج١ ,ص٦٠١ ؛ابن حبيب,المحبر,ص١١١ ؛الطبري,ج١ ,ص٤٠٧ ؛الواقدي ,المغازي , ج١, ص ١٢ ؛المقدسي ,المطهر بن طاهر,البدء والتاريخ, (باريس: ١٩٠٧),ج٤,ص١٨٢.

وعن غزوة بدر الثانية أو سرية عبد الله بن جحش-غزوة نخلة - يقول ابن هشام : "وبعث رسول الله (ﷺ) عبد الله بن جحش بن رئاب الأسدي في رجب , مقفله من بدر الأولى ,وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ,وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه ,فيمضي لما أمره به ولا يَسْتكره من أصحابه أحداً "[(١)].

عَدّدَ ابن هشام بعد ذلك أسماء المهاجرين الثمانية ثم قال : "فلما سار عبدالله بن جحش يومين فتح الكتاب ,فنظر فيه فإذا فيه : إذا نظرت في كتابي هذا فامضِ حتى تنزل نخلة,بين مكة والطائف ,فَتُرصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم . فلما نظر عبدالله بن جحش في الكتاب ,قال : سمعا وطاعة ؛ثم قال لأصحابه : قد أمرني رسول الله (ﷺ) أن أمضي إلى نخلة ,أرصد بها قريشا ,حتى آتيه منهم بخبر ,وقد نهاني أن أستكره أحدا منكم..... فمضى ومضى معه أصحابه ,لم يتخلف عنه منهم أحد ".

---

(١) عبد الله بن جحش الأسدي حليف بني شمس ,أحد السابقين في الإسلام ,هاجر إلى الحبشة وشهد بدرا ,كان أول أمير في الإسلام عندما بعثه النبي ﷺ إلى نخلة ,استشهد في أُحد . راجع : ابن حجر , شهاب الدين أبا الفضل بن علي (٨٥٢/٧٧٣ هجرية), الإصابة في تمييز الصحابة ؛ وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب ,ج٢, (القاهرة ١٣٢٨ هجرية,ص ١٨٧ -٢٨٦ ؛ ابن سعد, الطبقات الكبرى ,ج٢, بيروت١٩٥٧ ,ص١٠.

"سلك عبد الله بن جحش على الحجاز ,حتى إذا كان بمَعْدن , فوق الفُرع يقال له : بحران ,أضل سعد بن أبي وقاص ,وعتبة بن غزوان بعيرا لهما ,كانا يتعقبانه فتخلفا عليه في طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل بنخلة فمرت به قريــش تحمل زبيبا وأدماً ,وتجارة من قريش ,فيها عمرو بن الحضرمي .... وعثمان بن عبد الله بن المغيرة ,وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان,والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة .فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا قريبا منهم وتشاور القوم, وذلك في آخر يوم من رجب وأجمعوا على قتل من قدروا عليه ,وأخذ ما معهم ,فرمى واقد بن عبد الله , والحكم بن كيسان ؛وأفلت القوم نوفل بن عبد الله فأعجزهم . وعندما قدم عبد الله بن جحش وأصحابه إلى المدينة قال لهم رسول الله (ﷺ) ما أمرتكم بقتال في الشهر الحرام ,فوقف البعير والأسيران وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا ,فسقط في يد القوم ,وعنف المسلمون إخوانهم ,واستغل يهود المدينة الفرصة وقالوا : عمرو بن الحضرمي قتله واقد بن عبدالله,عمرو,عُمِرَتْ الحرب,والحضرمي,حَضَرتْ الحرب؛وواقد بن عبد الله , وقَدت الحرب. فجعل الله– سبحانه وتعالى – ذلك عليهم لا لهم عندما نزلت الآية الكريمة ٢١٧من سورة البقرة تقول : ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ

أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾[(١)].

وجاءت بعد هذه الأحداث غزوة بدر الكبرى وهي المعروفة بغزوة بدر الثالثة , وفيها يقول ابن هشام :"إن رسول الله (ﷺ) سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة , فيها أموال لقريش وتجارة من تجارتهم وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون .....ندب المسلمين إليهم وقال هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها ......قال ابن إسحق : "وخرج رسول الله (ﷺ) في ليال مضت من شهر رمضان في أصحابه – قال ابن هشام : "خرج يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر رمضان, ...فكانت وقعة بدر صبيحة يوم الجمعة صبيحة سبع عشرة من شهر رمضان "[(٢)].

ثانياً : النص المدون على وجه (recto) القصاصة البردية على النحو الآتي :

١- ...] .[ ] .[ ]-[ ].[ ]س و ع

٢- [و] اقد بن ع[بدا]ل[له و]رسول[له

(١) ابن هشام ,السيرة,ج١,ص ٦٠٣/٦٠١ ؛راجع أيضا الطبري ,تاريخ,ج٢,ص١١٠ وما يليها ؛ الواقدي ,المغازي ,ج١,ص١٩ .

(٢) ابن هشام ,السيرة ,ج١,ص ٦٠٦-٦٠٧,ص٦١٢-٦٣٦ ؛الطبري تاريخ,ج٢,ص ٤٠٩-٤١٥ ؛ابن حبيب,المحبر,ص١١١ ؛اليعقوبي ,أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر(ت ٢٨٤ هجرية/٨٩٧ م),تاريخ , المجلد الثاني , بيروت : ١٩٩٥م,ص٤٥.

٣- من [ا]الطاك[-]ا و[ ]- شجر[(١)]

٤- من بني عدي بن ك[عب]-من بني [

٥- لمغيرة وحكم بن ص[ ].[لا]...]ود .[ا] [ ]د [ ]د

٦- أربعة عشر شهرا من [شهر] محـ[رم ال[كريم خرج[وا] ن إلى بدر وح[

٧- محمد إلى بدر فالتقوا ببدر دازداب عل[ي] ثمان[ي]ة [عش]ر شهرا من محرم [الكريم

٨- محمد من مكة وقريش نوم[ ] [و] من مكة ألف رجل قنبا وماجد بن(٢) .

نلاحظ على القصاصة البردية السابقة: أنها مهشمة بدرجة كبيرة ولا نستبين من السطر الأول فيها إلا ثلاثة حروف فقط , ومن المستحيل على المتخصص التأكد من أن قطعة البردي الأصلية

(١) من المحتمل أن الكلمة الثانية المذكورة بعد حرف الجر "من", التي تتكون من حروف[ا] لطاك[.], يرجح أن الحرف الكاف خطأ هنا والصحيح استبداله بحرف الياء التي عليها همزة, وعلى ذلك يكون الحرف الباقي في نهاية الكلمة هو حرف الفاء ,وتكون الكلمة بعد اكتمالها "الطائف " , والمعروف أن نخلة تقع بين مكة والطائف .

(٢) راجع صورة الوثيقة نفسها التي قمنا بتصويرها من : Grohmann (A),Arabic Papyri Hirbet El-Mird ,Louvain ١٩٦٣ Nov١,pp.٨٢-٨٤. , في الملحق المصور من الأصل في نهاية البحث ؛ وراجع أيضا البحث التالي : الروبي,آمال محمد,"معركة بدر الكبرى في ضوء وثيقة بردية "سلسلة مداولات اللقاء العلمي السنوي لجمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون ,العدد (٥),ملحق رقم (١),ص ١٦٢ .

تتمثل فقط في هذه القصاصة التي تم العثور عليها خاصة, وأنها بدون مقدمة ,إلى جانب أن السطر المرقم عند النشر برقم واحد لا يعني أنه يمثل السطر الأول في الأصل, وهو الأمر الذي يُرجح في ضوء عدم وجود بداية للبردية أو أي خيط يمكن أن يقود إلى معرفة مساحتها الأصلية . ويرجع هذا الترقيم إلى ما اتفق عليه علماء البردي ودرجوا عليه عند نشره تيسيرا لمتابعة التعليق عليه. .أما المتن المدون على ظهر (verso) القصاصة ,فمدون بخط يد مختلفة, وتحمل سطوره الست جزءا من خطاب شخصي غير مكتمل هو الآخر .

ثالثاً: لا يوجد في القصاصة سطر واحد متكامل ,أو شبه متكامل,ومملوءة بالفجوات (lacunae) ويقول عنها ناشرها : إنها ممزقة ومدمرة من الجانب الأيسر ومن نهايتها ؛ ونضيف على ما تقدم أنها لا تتحدث حديثا متصلا ,ويبدو أن كاتبها كان يكتب بطريقة مختصرة أشبه ما تكون بطريقة الاختزال,وهي طريقة كانت متداولة في بعض كتابات البردي المسجل باللغة اليونانية ,والمعروف أن اللغة اليونانية كانت هي اللغة الرسمية المستخدمة في كل من مصر وسوريا وفلسطين ,واستمرت مستخدمة بعد الفتح العربي بحوالي نصف قرن قبل زوالها واستبدالها بلغة القرآن الكريم ,أي حتى أوائل القرن الثامن الذي يرجح ناشر البردية أنه التاريخ الذي

ترجع إليه القصاصة البردية.

رابعاً : تذكر كرون أن القصاصة تبدأ بذكر الأسماء الأربعة ؛ بينما الحقيقة أنه يوجد أعلى الأسماء سطر مطموس كما سبق ذكره , لم يتبق منه غير ثلاثة حروف في نهايته,إضافة إلى أن الكاتب بدأ يسجل في السطر الأخير عن معركة بدر الكبرى, ولم يذكر عنها سوى كلمات قليلة وهي : "محمد من مكة وقريش من مكة وألف رجل – وشخصا يدعى– ماجد". وعندها تنتهي القصاصة ,أو بمعنى أصح ما وصلنا منها.

خامساً: يتضح مما تقدم ومن القصاصة البردية التي استخدمتها كرون الآتي: قيام كرون بالخلط بين معارك بدر الثلاث بقولها: "المعروف أن هناك ما لا يقل عن ثلاث معارك وقعت في بدر ,الأولى لفترة قصيرة ولم يحدث فيها اشتباك ,والثانية هي التي حدث فيها قتال Badr al-qital أو هي المعركة المعروفة والثالثة لا تعنينا في هذا المجال " ؛وذلك على عكس الترتيب الذي وقعت به المعارك الثلاث وكما ذكرها ابن هشام ؛لأن القتال حدث طبقا للتسلسل الزمني في المعركة الثالثة وليس في المعركة الثانية ؛وحتى إذا تغاضينا عن هذا واعتبرناه سهوا كان ينبغي عدم الوقوع فيه لو كان حقا سهوا ,فنحن نتساءل هنا : بأي حق تقوم بإلغاء إحدى المعارك التاريخية ؟هل قامت بذلك لعدم وقوع اشتباك

فيها ؟لكن حتى ذلك أيضا لا يعطيها هذا الحق طالما أن المصادر الأصلية تستخدم لها هذا التوصيف.

سادساً : ما هو المقصود بأن المصادر الكلاسيكية لم " يأت فيها هنا ذكر لأي من: واقد ,وعدي بن كعب ,والمغيرة أو الحكم فيما يخص تلك الحقبة من المصادر الكلاسيكية" , المرجح أنها تعني بها المصادر الإسلامية ,لكن الأخيرة تشير إليهم وتذكرهم على عكس ما تدعي ,ولكن في موضع الحدث الذي شاركوا فيه ,أي في معركة بدر الثانية (غارة نخلة) , ما يباعد بين ما تذكره كرون والحقيقة المؤكدة ؛ وعلى سبيل المثال وليس الحصر فقد جاء ذكرهم لدى ابن هشام في النص الذي قدمناه أعلاه.

سابعاً: إن ما ذكرته كرون من أن التاريخين المذكورين – في القصاصة البردية –"يمثلان إما تاريخ نخلة وغزوة بدر على التوالي أو تاريخ معركة بدر وحدها , . وإذا كان الأمر الأول صحيحا فهذا يعني أنه أصبح لدينا تاريخ محرف لغارة نخلة ,والآخر لغزوة بدر . وإذا كان الأمر الثاني هو الصحيح فمعنى ذلك أنه لدينا تاريخان محرفان لمعركة بدر ".

أن ما ذكرته هنا خطأ واضح ,بينما الحقيقة على غير ذلك ؛ إذ ينطبق التاريخ الأول فيها –على ما ذكرته المصادر الإسلامية طبقا لترتيبها الزمني– على غزوة بدر الأولى التي وقعت أحداثها في شهر

جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة ,دون ضم شهر محرم لها- وهي تلك الغزوة التي تريد كرون إلغاءها,التي كان أغلب الظن يتحدث عنها كاتب البردية في الجزء الضائع من القصاصة ,ولم يتبق من هذا الجزء غير السطر الذي لم يتبق منه غير ثلاثة حروف ؛ وينطبق التاريخ الثاني وهو الثامن عشر من الهجرة على معركة بدر الثانية أو غزوة نخلة التي وقعت أحداثها في شهر رجب,ووقعت في آخر يوم منه ؛ دون ضم شهر محرم إليه ,لأن ذكر كاتبها لشهر محرم لا يعني أنه يبدأ العد منه, وهي التواريخ نفسها التي ذكرها المؤرخون المسلمون كما هو واضح من النص الذي قدمناه أعلاه , ما يؤكد في الوقت نفسه على دقتهم ؛ بمعنى أن التاريخين المذكورين في القصاصة البردية يمثلان تاريخ غزوة بدر الأولى (غزوة صفوان), وتاريخ غزوة بدر الثانية (غزوة نخلة),ويظل تاريخ غزوة بدر الكبرى خارج نطاق هذه القصاصة البردية , وقائما كما ذُكر في القرآن الكريم ؛ لأن كاتب البردية لم يكمل حديثه عنها,وذكر اسم محمد ومكة وقريش وألف رجل وماجد ,وعند هذا الحد انتهى ما وصل إلينا من هذه القصاصة ,وعزز ما ذكرنا أن نص الخطاب الشخصي المدون على ظهر(Verso) البردية الأصلية غير كامل , الأمر الذي يؤكد أن الحديث كان له بقية .

ثامناً : جاءت بعد غارة نخلة معركة بدر الكبرى التي وقعت

أحداثها في اليوم السابع عشر من شهر رمضان كما ذكرت المصادر الإسلامية ,وأشار إليها القرآن الكريم وهو كلام الله – سبحانه وتعالى – المُنزل على رسول الهدى والحق محمد رسول الله (ﷺ) الذي "لا ينطق عن الهوى ".

تاسعاً : ومن خلاصة ما تقدم يتضح أن جميع ما دار حول هذا الموضوع من مناقشات كرون الطويلة قد بُني على خطأ تاريخي كما هو واضح من عملية خلط الأحداث التاريخية ,واستبدال معركة ووضعها مكان أخرى لاستخراج التاريخ الذي يحقق الهدف للتشكيك في تاريخ الشهر الذي ذكره القرآن الكريم عنها ,من أجل بردية ممزقة ومدمرة تضم ثماني أسطر : السطر الأول لم يتبق منه غير ثلاثة حروف. وثلاثة أسطر فُقد حوالي نصفها الأيسر ,والسطر الخامس ضاع أكثر من ربعه , وثلاثة أسطر مليئة بالفجوات (Lacunae),وحتى السطر الأخير الذي يُعد أفضلها , لا يخلو من فجوة Lacuna إلى جانب عدم وضوح كلمة أخرى فيه . ورغم كل ذلك لم تحقق الهدف المرجو منها .

عاشراً : سبق ووافق جرومان ناشر القصاصة البردية وهو من كبار المتخصصين في الدراسات الإسلامية وغيره على التواريخ التي ذكرها الكتاب المسلمون كما أشارت كرون نفسها في ص ٢٢٧ , الحاشية رقم ١٠١ من كتابها .

الحادي عشر: حقيقة إن الشك في المصادر التاريخية يعد أهم سمات عملية التحليل التاريخي ,بهدف الوصول إلى الحقيقة ,لكنه استخدم هنا في غير موضعه , فقد قامت بخلط الوقائع التاريخية ليس عن غفلة وهي التي عُرف عنها الدقة , مستغلة سهولة اقتناع القارئ الغربي بما تكتبه لعدم معرفته بالتاريخ الإسلامي,أو معرفته الهامشية به في أحسن الأحوال ؛ وكثيرا ما جعلته يتأرجح بين الشك واليقين , وسوف أكتفي هنا بذكر نماذج قليلة من كثير قدمته .فهي مرة تقول له,"إن وقائع معركة بدر تعد من الحقائق القليلة المؤكدة في تاريخ الإسلام "(١) ؛ وبعد ذلك تذكر له أنها "تجد صعوبة كبيرة في مطابقة شهر رمضان بشهر الفرقان "(٢).

كما تقول إن القرآن (الكريم)بصفة عامة ,"على الرغم من عدم وجود تغيير فيه أو بمعنى آخر كما بُشر به محمد (ﷺ) نفسه ,يعد مصدرا معاصرا وسواء أكان ذلك صحيحا أو لم يكن كذلك ,فإنه يقدم الكثير من المعلومات التاريخية "(٣).

وعلى ذلك ينبغي أن نطبق عليها نفس منهجها الذي حاولت تطبيقه على المؤرخين المسلمين وهو : إسقاط المعلومات المحرفة التي

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٢٦.

(٢) Ibid

(٣) Crone ,Op. Cit. p.٢٠٣.

انحرفت بالأحداث التاريخية بالكامل ,والآراء المتعصبة التي قدمتها, الأمر الذي ينزع عنها صفة الحياد التي ينبغي أن تتوافر لدى الباحث التاريخي الجاد .

المحور السادس
تكوين الدولة الإسلامية

سوف نستعرض في هذا المحور عدة نقاط أساسية أثارتها كرون ,ونقوم بمناقشتها كل على حدة حتى يسهل على القارئ تتبع خيوطها :

أولاً : مقاومة كفار قريش للدعوة الإسلامية في مكة ونجاحها في يثرب :

تتساءل كرون في بداية هذه القضية عن الدور الذي لعبته قريش كسادنة للكعبة وتقول :["إن قريشا لم تلعب أي دور من الأدوار التي كان من المتوقع قيامها به كسادنـــــة الكعبة قبل الإسلام"][١],...... ["وإذا كانت قريش تعد نفسها سادنَةً لإله إبراهيم ,هذا مع اعترافهم بوجـــود آلهة أخرى ,فلماذا جاء رد فعلهم ضد محمد (ﷺ) على هذا النحو , وهو الأمر الذي يصعب فهمه"][٢]....... ثم تتساءل عن السبب ["في أن دعـــــــوة الرسول (ﷺ) كان قبولها في المدينة أكبر من قبولها في مكة "],...... وحكمها على الرسول (ﷺ) بأنه كان في مكة[" مُجَرَّدُ مُدَّعٍ للنبوة , وإذا قدر له أن يظل فيها ,فإنه كان سيظل كذلك . ما يجعلنا نفهم السبب في غياب

(١) Crone, Op. Cit. p.١٨٦-٧.

(٢) Crone, Op. Cit. p.١٩٠-١٩١

الأدلة الخـــاصة بالمشكلة في مكة بوجه عام "][1] . ثم تأتي بعد ذلك بسؤال عجيب آخر عن :["ما هو مدى الاختلاف الذي كان يمكن أن يحدث لو أن محمدا (ﷺ) قد بدأ دعوته من المدينة مثلا أو أي مكان آخر"] [2]؟. وتختم كرون سلسلة ادعائها ضد الإسلام وخاتم الأنبياء والمرسلين بقولها بأنه.["ومما لاشك فيه أن نجاح محمد جاء نتيجة لارتباط دعوته بتكوين دولة وبالغزو "][3].

١- وللرد عليها في هذا الجانب نقول : إن أول شيء نريد أن نلفت نظر القارئ إليـــه أن المستشرقة اعترفت هنا بما سبق أن رفضته ,وهو وجود البيت المقدس في مكة , ووجود مناسك خاصة به ,وارتباط قريش بمكة - منذ قصي الجد الأكبر للرسول (ﷺ). ولكنها هنا تحاول بكل جهدها تقديم صورة باهتة الملامح لقريش في إدارة مكة قبل الإسلام ,وترى أنها لم تكن تؤدي عملا واحدا من النوع الذي يقوم به أولئك الذين تربطهم علاقة خاصة بالمكان الذي ارتبطوا به ,وتقصر هذا الدور على قيامهم بأعمال الحفر,ولا تحدد نوعية هذا الحفر والبناء ؛ وأنه كان المقصود منه حفر آبار المياه التي يشرب منها الحجيج الذين يقومون بتأدية مناسك الحج في مكة

---

(١) Crone, Op. Cit. p.٢٣٥

(٢) Ibid.

(٣) Crone, Op. Cit. p.٢٤٣.

وزيارة بيتها الحرام ؛ وتذكر توفير الطعام,دون أن تقول لمن كان يتم توفير الطعام ؛ وهم الحجيج بطبيعة الحال ؛وتغفل ذكر الملابس التي يرتديها الحجيج أثناء تأديتهم لشعائر الحج ,ولا تذكر كلمة واحدة عن سياسة قُصي التي سار عليها بعد أن آل إليه أمر مكة التي أوضحها ابن إسحق بقوله إن قصيًّا "أقر للعرب ما كانوا عليه , وذلك كان يـــراه دينا في نفسه لا ينبغي تغييره . فأقر آل صفوان وعدوان والنسأة ومُرة بن عوف على ما كانوا عليه .....وكان قُصي أول بني كعب بن لويء أصاب ملكا أطاع له به قومه ,فكانت له الحجابة والسقاية والندوة واللواء ,فحاز شرف مكة كله ". إن إبقاء قصي على المناصب السابقة في أيدي أصحابها كان سياسة حكيمة منه حتى لا يثير عليه القبائل في مقتبل حكمه لمكة .وكانت المناصب التي أبقى عليها في يده لا يستطيع أن يقوم بها إلا من يتمكن من الإنفاق عليها لثقل نفقاتها المالية خدمة لحجاج بيت الله الحرام , وتحتاج فى الوقت نفسه إلى تنظيم العمل الجماعي في المجتمع ما يؤدي إلى إحكام قبضته على مكة بأسرها . لذلك "حاز شرف مكة كله"(١).

٢- يرجع السبب في مقاومة كفار مكة للرسول (ﷺ)أن مجتمع مكة كان مجتمعا ثريا تَحكمَ فيه الأثرياء ,وحقد فيه كثير من أثريائها

---

(١) راجع : ابن هشام ,السيرة ,ج١ ,ص ١٢٤-١٢٥ ؛الطبري ,ج١ ,ص ٢٥٨- ٢٥٩.

على نزول الرسالة على الرسول (ﷺ) وليس على أحد منهم, لذلك قال أبو جهل : "تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ,أطعموا فأطعمنا,وحملوا فحملنا ,وأعطوا فأعطينا ,حتى إذا تحاذينا على الرَّكبْ ,وكنا كفرسي رهان ,قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ,فمتى نُدرك مثل هذه ,والله لا نؤمن به أبدا ولا نصدقه" (١). وعبر الوليد بن المغيرة عن هذه المشاعر الحاقدة نفسها بقوله : "أيُنزل على محمد وأُترك وأنا كبير قريش وسيدها ؟ ويترك أبو مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي سيد ثقيف ونحن عظيما القريتين "؟وأنزل الله — تعالى– فيه ﴿ وَقَالُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ عَلَىٰ رَجُلٖ مِّنَ ٱلۡقَرۡيَتَيۡنِ عَظِيمٍ ﴾ سورة الزخرف , آية (٣١).

لقد حَرّمَ الإسلام ما كانوا يؤمنون به من عبادة الآلهة الوثنية التي اعتادوا عليها وشاركتهم حياتهم ,وتداخلت معها ومع عبادة إبراهيم عليه السلام .كما أن الإسلام كان يُحرم المنكرات التي اعتاد عليها أثرياؤهم من خمر وميسر وزنا وربا , وفوق كل ذلك يساوي بين البشر جميعا بصرف النظر عن اللون أو الجنس أو الثروة ؛ لأن المقياس الوحيد للتفرقة بين البشر في تقوى الله سبحانه وتعالى .جزع

(١) ابن هشام,السيرة ,ج١,ص ٢٦٢ ؛. وعن هذه الأعداد الغفيرة الذين دخلوا الإسلام في مكة من كافة مستويات أهل مكة راجع : ابن هشام ,ج١.ص ٢٣٧,٢٤٥,٢٦٢,٣٣٠,٣٣٢,٣٧٤ , ٤٢٨ – ٤٥٤ , وما يليها

كفار مكة من دخول عبيدهم في الإسلام بأعداد كبيرة,مما كان يترتب عليه فقدهم لمصدر مهم من مصادر ثروتهم . ومن هنا جاءت ضراوة مقاومة قريش للرسول صلى الله عليه وسلم ,ولا غرابة في ذلك ,فقد سبق لليهود وهم أهل دين سماوي أن قاوموا السيد المسيح عليه السلام بشدة عندما بدأ يبشر بالمسيحية على الرغم من أنه كان واحدا منهم ,وتآمروا عليه مع الوثنيين الرومان , ولم يتركوا وسيلة لمحاربته إلا واستخدموها وهم أهله وعشيرته, وأهل كتاب في الوقت نفسه .

٣- أن الرسول (ﷺ) لم يَدّعِ النبوة ,ولكنه نبي الله وخاتم رسله الذي بُشرَ به في التوراة والإنجيل ,ويعرفه أحبارهم كما يعرفون أبناءهم وإن ادعوا غير ذلك .إن مجرد قولها ما تقدم يضعها في موضع الخصم وليس في موضع المؤرخة التي من المفترض أن تكون عليه .

٤- أنها أغفلت الأعداد الغفيرة التي دخلت في الإسلام في مكة تباعا على الرغم من أن الكفار لم يتركوا وسيلة إلا لجئوا إليها لمحاولة منع ذلك ,ولكنهم أخفقوا في ذلك إخفاقا شديدا ,وذكر ابن إسحق :"ثم دخل الناس في الإسلام أرتالا من الرجال والنساء , حتى فشا الإسلام بمكة ,وتُحدثَ به "وذلك في مرحلة الدعوة سرا

للدين الإسلامي[١] .

٥- كان مجتمع المدينـة مهيأ لقبول دعـوة الرسـول (ﷺ) بـسبب وجود اليهود بينهم , فقد اعتاد اليهود عندما كان يثور النزاع المستعر بين الأوس والخزرج , الذي كانوا ينفخون في نيرانه لتزداد اشتعالا أن يقولوا لهم : "لقد قارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم " ؛ ويروي ابن إسحاق عن عبد الله بن سلام وكان حبرا من أحبار اليهود قال : "لما سمعتُ برسول الله (ﷺ) عرفت صفته واسمه وزمانه الذي كنا نتوكف (نترقب ونتوقع) له ,فكنت مُسِرًا لذلك ,صامتا عليه ,حتى قدِم رسول الله (ﷺ) المدينة ,فلما نزل بقباء ,في بني عمرو بن عوف ,أقبل رجل أخبر بقدوم رسول الله (ﷺ) وأنا على رأس نخلة لي أعمل فيها ,وعمتي خالدة بنت الحارث تحتي جالسة ,فلما سمعتُ الخبر بقدوم رسول الله (ﷺ) كَبَّرتُ ,فقالت لي عمتي حين سمعت تكبيري : خيبك الله ,والله لو كنت سمعت بموسى بن عمران قادما ما زدت ,قال فقلت لها : أي عمة ,هو والله أخو موسى بن عمران ,وعلى دينه بُعث بما بُعث به ,قال : فقالت : أي ابن أخي ؛أهو النبي الذي كنا نُخْبَّر عنه أنه بعث مع نفس الساعة ؟ قال : فقلت لها نعم ,فقالت : فذاك إذن .

---

(١) ابن هشام,السيرة, ج١,١٢١.

قال: ثم خرجت إلى رسول الله (ﷺ) فأسلمت[1], أضف إلى ما تقدم أنه كان للرسول (ﷺ) رحِم بالمدينة , فوالدته آمنة بنت وهب من بني زهرة,أي أن رسول الله (ﷺ) لم يكن غريبا عنها , بل كانت تربطه صلة رحم بها .

٦- من الحقائق المعروفة أن جميع الرسالات السماوية واجهت ضدها في بداياتها معارضة كبيرة,لأن تغيير العقيدة ليس بالأمر السهل أو الهين على الإنسان ,فهي تعني إلغاء ميراثه الفكري واستبداله بآخر جديد ,وتزداد ضراوة المقاومة مع زيادة ما يفقده الإنسان من مزايا مادية أو معنوية نتيجة لمساواة الرسالات السماوية بين البشر .لقد واجهت جميع الرسالات السماوية هذه المعارضة الشديدة ,فقد كذب قوم نوح وإبراهيم وصالح وهود – عليهم جميعا السلام – أنبياءهم ؛وكذب قوم موسى عيسى – عليه السلام– وهو منهم وتآمروا عليه كما سبق توضيحه ,فلماذا يستثنى قوم محمد رسول الله (ﷺ) في مكة من القاعدة ويشذون عنها ؟.

٧- لا نعرف بالتحديد ما هو المقصود من قولها "غياب الأدلة الخاصة بالمشكلة في مكة ", إن المشكلة الأساسية لديها هي في الإسلام وظهوره في مكة ونزوله على خاتم الأنبياء والمرسلين ,ولا

---

(١) ابن هشام ,ج١ ؛ص ٥١٧وعن تعرف أعداد كبيرة من اليهود على الرسول صلى الله عليه وسلم من صفاته ,راجع المصدر نفسه والجزء المذكور أعلاه .ص ٥١٨,٤٢٨ .

يوجد أدلة غائبة عن أي جانب من حياة الرسول أو الدعوة,سواء في مراحلها المبكرة ,أو المراحل التي مرت عليها بعد ذلك ,فقد حفظت لنا المصادر أدق التفاصيل عنها ,على عكس جميع الرسالات السابقة التي ضاعت الكثير من كتبها وكثير من تفصيلات حياة رسلها عليهم السلام أجمعين.

وسنقدم مثالاً واحدا عن أقرب الرسالات زمنيا إلى الإسلام , وهى رسالة السيد المسيح -عليه السلام- لقد ولد في بيت لحم في فلسطين في العام الأول الميلادي,وأمضى عدة سنوات في طفولته في مصر ,وبدأ الدعوة في شبابه في فلسطين, حيث انصب غضب قومه اليهود عليه ,وتآمروا ضده مع الإمبراطورية الرومانية صاحبة السيادة على فلسطين في ذلك الوقت ,وحاربت روما المسيحية على الرغم من أنها كانت لا تتدخل في ديانة الشعوب التي حكمتها ,وكان السبب الرئيسي لشنها الحرب عليهم أنها كانت تعتقد في البداية أن اليهود الذين اعتنقوا المسيحية يتآمرون عليها لتعبدهم سرا ,بينما كان المسيحيون الأوائل يتعبدون سرا خوفا من قومهم اليهود أنفسهم,و عندما ساءت العلاقات بين روما وبين اليهود بعد أن اكتشفت روما أنهم يسعون للاستقلال التدريجي عنها في فلسطين, ويتآمرون لاقتطاعها عن الإمبراطورية الرومانية,انتهى الأمر بتدمير معبدهم عام ٦٩/ ٧٠ م.

استغرق الأمر حوالي قرن من الزمان حتى أدركت روما أن

المسيحيين أتباع دعوة جديدة غير دعوة موسى عليه السلام .وعلى الرغم من ذلك تمسك الأباطرة الرومان بأن الجميع ينبغي عليهم تقديم طقوس العبادة للأباطرة ,ومن هنا جاء اضطهاد المسيحيين ومطاردتهم التي كانت تشتد حينا وتهدأ حينا آخر ,ووصل الأمر إلى حـــد القتل والتعذيب لمن يُعثر معه أو في منزله على كتابات مسيحية- أي من الإنجيل – وظـــل الوضع قائما على ذلك المنوال حتى صدور مرسوم ميلان (Edict of Milan) على يد الإمبراطور قسطنطين Constantine الأول عام ٣١٣م, الذي مَنح فيه الديانة المسيحية حق الحياة مثلها مثل العبادات الأخرى ؛ ولم تصبح المسيحيـــة الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية إلا في عام ٣٧٩ ميلادية ؛ لهذا السبب ضاعت كثير من تفاصيل حياة السيد المسيح ,وجاء الاختلاف في الأناجيل المعترف وغير المعترف بها والتي جُمعت بعد قرون طويلة من الاضطهاد الروماني للمسيحية بلغ أكثر من ثلاثة قرون من الزمان[١] .

لقد شاء الله – سبحانه وتعالى- حفظ كل صغيرة وكبيرة من تفاصيل حياة خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد (ﷺ) سواء في مكة أو في المدينة إذ قام الكتاب والمؤرخون بتدوينها منذ فترة مبكرة , وكذلك القرآن الكريم الذي لم تتغير فيه كلمة واحدة وهو ما

(١) إنجيل برنابة من الأناجيل غير المعترف بها ,وذكر فيه الرسول ﷺ باسم أحمد.

تعترف به كرون على مضض ورغما عنها كما سبق أن أوضحنا[(١)] .
وهكذا نرى هنا أنها كانت في إحدى محاولاتها اليائسة التي تحاول أن توهمنا فيها بطرق ملتفة بغير الحقيقة الواضحة.

٩- إن تساؤل كرون عن مدى الاختلاف الذي كان يمكن أن يحدث لو أن محمـــــدا (ﷺ) بدأ دعوته في المدينة مثلا أو من أي مكان آخر ؟هو تساؤل في غير محله ؛ لأن القاعدة العامة في البحث التاريخي أن الباحث يقوم بتحليل الأحداث التي وقعت فعلا ,ولا مجال للافتراض بتغيير وقائعها وأحداثها ,وهو أمر يُعد من بديهيات عمل المؤرخ ,ولسنا في حاجة إلى التأكيد بأن مثل هذه الافتراضات الخيالية تقود المؤرخ إلى سلسلة من التخمينات الخاطئة ,كأن يقال مثلا لو لم يولد هتلر ما قامت الحرب العالمية الثانية,ولما أصاب اليهود ما أصابهم ,ولما راح ضحيتها خمسون مليونا من البشر وهكذا .

ثانياً: المشكلة الروحية في بلاد العرب قبل الإسلام :

تقول كرون : ["أما بخصوص المشكلة الروحية ,فلم يظهر ما يفهم منها أي إشارة على وجود هذه المشكلة في بلاد العرب في القرن السادس "[(٢)] , وترى " أن بلاد العرب كانت في العصر القديم

Crone ,Op. Cit. , p.٢٠٣ . (١)

Crone ,Op. Cit. , p.٢٣٦ . (٢)

كما هو الحال قبل العصر الحديث ,فقيرة في الأساطير والاحتفالات والشعائر والأعياد بشكل ملحوظ ,واقتصرت الحياة الدينية لديهم على زيارات موسمية يقومون بها إلى الأماكن المقدسة و الأحجار والأشجار وتقديم الأضاحي واستشارة العرافين,ولم تكن هذه الطقوس مرتبطة بالاعتقاد بآلهة محددة , ويبدو أن الحج السنوي الذي كانوا يقومون به لم يكن يرتبط بإله واحد معين, أما بقية الطقوس فكان يمكن تحويلها من إله لآخر ,واستمرت مثل هذه الطقوس قائمة عند كل من القبائل المسلمة والمسيحية في العصر الحديث .... وعلى الرغم من نشاط المبشرين في التبشير في الجزيرة العربية فهم لم يكونوا في وضع يمكنهم من معرفة مدى التحول الذي تم للمسيحية "[١]. وتختم مناقشة هذا الموضوع بقولها : "ومن ناحية الوصف السلوكي فإن أفضل أجزاء بلاد العرب ظلت وثنية بالفعل حتى القرن التاسع عشر[٢] .

ونلاحظ على تلك الادعاءات الآتي :

أولاً : يفيد الواقع التاريخي بوجود مشكلة روحية في بلاد العرب على غير ما ترى, والدليل على ذلك أن المصادر تذكر عددا من العرب الذين فارقوا دين آبائهم قبل ظهور نور الإسلام , ومنهم

---

(١). Crone ,Op. Cit. , p.٢٤٠

(٢). Crone ,Op. Cit. , p.٢٤١

عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف وشيبة بن ربيعة بن عبد شمس, وكان يتحنف بحراء ,وورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العُزى , وأبو أمية بن المغيرة ,والحارث بن عبيد المخزوميان ,وزيد بن عمرو بن نوفل بن عبد العزى العدوي ,وكان يتحنف بحراء ولا يأكل ما يذبح للأصنام ,وعامر بن حذيم الجمحي , وعبد الله بن جدعان التميمي , ومقيس بن قيس بن عدي السهمي , وعثمان بن عفان (رضي الله عنه) بن أبي العاص بن أمية ,والوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وولده هاشم (١).

دان أغلب هؤلاء بالحنيفية ,وذكر القرآن الكريم صراحة أن الحنفاء لم يكونوا يهودا أو نصارى ,وإنما كانوا موحدين على ملة إبراهيم عليه السلام (سورة البقرة , الآية الكريمة ١٣٥ ؛آل عمران الآية الكريمة ٦٧). وكان هؤلاء الحنفاء هم البشير الذي عَبّر بعمق عن حاجات مجتمعهم الدينية والاجتماعية والسياسية ,وهي الحاجات التي جاء الإسلام ليلبيها جميعها . وكان شِعر أمية بن أبي الصلت عن الحساب والثواب والعقاب والجنة والنار أبلغ بيان للمعاناة التي عانى منها الحنفاء حتى جاء الإسلام ,وكان مسلك عثمان بن مظعون والمتبتلين ووكيع بن سلمة الإيادي وغيرهم إعلانا لهذا النزوع إلى الدين الجديد ,الذي بدت الجزيرة العربية

---

(١) ابن حبيب ,المنمق,ص٥٣١-٥٣٢.

كأنها تحس بأنه على وشك الظهور في الأفق[١] .

ثانياً : إن القول باستمرار الطقوس الوثنية لدى القبائل المسلمة والمسيحية في العصر الحديث قول غير صحيح ,فالجزيرة العربية خالية من المسيحية ,ومن جهة أخرى لم توضح على وجه التحديد ما هو المقصود بالطقوس الوثنية التي لديهم في العصر الحديث!! بيد أنها تعني هنا - وإن لم تصرح بأن- المقصود بها الحج ؛ ونرد عليها القول بأن الحج الجاهلي كان من بقايا دعوة إبراهيم- عليه السلام - في مكة قبل الإسلام كما سبق وناقشنا ,ولكنه يعد أحد أركان الإسلام الرئيسة ,وعن زيارة المسيحيين للقدس الشريف والتي يشاركهم فيها المسلمون نقول بأنها ليست شعيرة وثنية بأي حال ,وتُعد تمجيدا لنبي الله عيسى -عليه السلام — والحديث عنها خارج نطاق الموضوع قيد البحث .

ثالثاً : أين النشاط التبشيري الذي تتحدث عنه في الجزيرة العربية التي تدين بالإسلام فيما عدا تلك الجيوب المتناثرة التي تضم أعدادا لا تتجاوز عدة مئات من اليهود في اليمن ؛ لقد أطلقت هذا القول دون تقديم مصدرها الذي اعتمدت عليه في توثيق المعلومة.

رابعاً : أما قولها" إن أفضل بلاد العرب ظلت وثنية حتى القرن

(١) راجع عن الحنفاء : ابن هشام ,السيرة,ج١ ,ص٢٢٢ وما يليها ؛ عن الشعر المنسوب إلى أمية بن ابي الصلت راجع : المصدر السابق ,ص ٢٢٧-٢٢٨ ؛ ابن حبيب ,المحبر,ص ١٣٦ .

التاسع عشر" , فهو قول يجافي الحقيقة بكل المقاييس,ويؤكد الجهل التام حتى بحقائق التاريخ الحديث , كما لم تقدم مصدرها الذي اعتمدت عليه لادعاء هذا القول ,لأنه لا يوجد مصدر لما تقول,والوثنية ليس لها أي أثر هنا أو هناك في طول الجزيرة العربية وعرضها ,إذن فالأمر لا يخرج عن كونه ادعاء يضاف إلى سابق ادعاءاتها الكثيرة التي قمنا بتفنيدها,ويجعلنا نرجح القول بأنها ترى فيما يبدو بأن الإسلام دين وثني.

خامساً: أما بخصوص ما ذكرته عن فقر بلاد العرب في الأساطير وقصص الخلق فإن ذلك يحسب لصالح سكان الجزيرة وليس عليهم ,لقد أحجمت عن ذكر السبب في ذلك ,لأنه كان سيقودها حتما إلى الاعتراف بما سبق أن رفضته ويتلخص في أن الجزيرة العربية كانت مهدا لكثير من الرسالات السماوية وعرفت كثيرا من الرسل والأنبياء منذ إبراهيم عليه السلام ,مرورا بأنبياء الله هود وصالح عليهم جميعا السلام ,ومنذ رفع إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام القواعد من البيت والعرب يحجون الكعبة ,ويطوفون البيت ويعرفون أن الله– سبحانه وتعالى– هو خالق الأرض والسماوات ,وبمرور الزمن أدخلوا كثيرا من مظاهر النحت الوثني على الرسالات السماوية ,ولكنهم مع ذلك ظلوا محتفظين ببقايا منها في ذاكرتهم ,أهمها معرفتهم بوجود الخالق – سبحانه وتعالى –

,لـذلك لم يكـن لـديهم أسـاطير مثـل تلـك الـتي حاكهـا ونـسجها الإغريـق عـن قـصة الخلـق ,أو تلـك الـتي انتـشرت مـع اليهـود نتيجـة لظروف الشتات (diaspora) الـذي عاشـوا فيه وطـوافهم الـدائم والمتـصل مـن مجتمـع إلى آخـر ,ومـن قـارة إلى أخـرى علـى طـول تاريخهم, ما أكسبهم معتقدات وثقافات الشعوب التي عاشوا بينهم , منذ خروج القبائل الرعوية الكلدانية من أور في دلتا العراق مع بداية الألف الثانية قبـل الميلاد ,ونـزولهم باديـة الـشام ,ثـم دخـولهم مـصر وخـروجهم منهـا ودخـولهم أرض كنعـان ,واتـصالهم بالكنعـانيين والآرامـيين والأمـوريين ,وامتـصاصهم الـدائم لـتراث هـذه الـشعوب الذي نتج عنه نقلهم من مرحلة البداوة التي كانوا عليهـا إلى مرحلـة التحـضر والتمـدن وعبـادة بعـض عباداتهم الوثنيـة كمـا حـدث في إلفنتين جنوب مصر . وبعد انتقـال أعـداد كـبيرة منهم للإقامة ببابـل وآشور كأسرى حرب منذ القـــرن الثامن ق.م, بعـد الأسر البـابلي الأول والثــاني , نقلــوا عــنهم معتقــداتهم في الــسحر والحيوانــات الخرافية التي تظهر بوضـوح في رؤى دانيـال ومراثـي ارميا. وأخـذوا مـن معتقـدات الفـرس الـذين جـاوروهم عنـدما اجتـاحوا العـراق في حقبة توسعهم في النـصف الثـاني مـن القـرن الـسادس قبـل الميلاد , معتقـداتهم عـن الجـن والملائكـة مـن الديانـة الزرادشـتية بأسمائهـا الفارسية والمجوسية , إلى جانب ثنائية الزرادشتية عن الخير والشر .

ثالثاً :الدولة الإسلامية والغزو:

تتساءل الكاتبة عن السبب في فشل العرب في تقديم المساعدة لمكة خلال فترة كفاحها ضد محمد (ﷺ),وتكشف عن مكنون نفسها عندما تقرن ذلك بقولها ["أنهم لو قدموا لها تلك المساعدة لقضي على دولة محمد عندما كانت لا تزال في مهدها في المدينة"][(١)] .....وفي تفسيرها لأسباب نجاح الدعوة الإسلامية تقول : ["ومما لاشك فيه أن نجاح محمد جاء نتيجة لارتباط دعوته بتكوين دولة وبالغزو"][(٢)] وتفسر رأيها بالقول بأنه :[" لكي تتلاءم رسالة محمد (ﷺ) مع المصالح القبلية ,كان لا بد من وجود قضية في برنامجها ,لكي يقدر لها النجاح في أي فترة من فترات التاريخ العربي . فالأساس الجوهري لإنشاء دولة للعرب وقيامهم بالغزو كان موجودا منذ فترة طويلة, وطالما كان لدى محمد فكرة استخدام التوحيد ,لخدمة النواحي السياسية ؛ فلابد من أن يكون الزمن في صالحها ,حتى ولو لم تكن على مستوى العرب جميعا .فنصرتهم لدين إبراهيم -عليه السلام- سابقًا ,يوضح أنه ورطهم سياسيًا في معتقداتهم ,ألا يجب إذن أن يتوحدوا بالمثل من أجل الغزو ,وبدون هذه الفكرة لما وجدت لديه القدرة على توحيد العرب للغزو ؟وإذا لم يكن محمد (ﷺ) قام

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٤٣.

(٢) Ibid.

بفعل ذلك,ألم يكن في الإمكان ظهور نبي آخر يلعب هذا الدور فيما بعد ؟ويمكن أن يدور النقاش حول أن الفتوحات دارت حول حقيقة واضحة وهي أن أحد الأشخاص كان لديه تصور معين ,وأن هذا التصور على الرغم من اتساعه ,كان محض مصادفة أن قام هذا الشخص بوضعه موضع التنفيذ في القرن السابع بدلاً من القرن الخامس أو العاشر أو لم يقم أحد بتنفيذه على وجه الإطلاق "[(١) .

وتبريرا لما تقدم ترى :[" أن الإسلام نشأ كحركة قومية ....ورد فعلي فطري للسيطرة الأجنبية(٢) .... وإذا قبلنا شهادة المصادر غير الإسلامية عن طبيعة تعاليم محمد (ﷺ),فإن هذا التفسير ينطبق عليها تماما .....وأن الفتوحات العربية لم يكن يقدر لها الوجود لولا ظهور القومية العربية "] (٣).

وللوقوف على ما ادعته الكاتبة فيما سبق نقول :

أولاً : يرجع السبب في عدم دعم القبائل العربية لقريش أثناء نزاعها مع الرسول (ﷺ) ولا يقال كفاحها , من أنه كان يُعد نزاعا داخليا بين أفراد قبيلة قريش , وبالتالي لا يحق لأي قبيلة أخرى التدخل فيه دون طلب المساعدة طبقا للتقاليد والأعراف العربية

---

(١) **Crone, Op. Cit. p.٢٤٥.**
(٢) Crone ,Op. Cit. p.٢٤٧.
(٣) Ibid

المرعية ,ولم تتقدم قريش بطلب المساعدة من أي قبيلة أخرى . أما قولها "أنهم لو قدموا لها تلك المساعدة لقضي على دولة محمد عندما كانت لا تزال في مهدها في المدينة" فهو ليس في حاجة إلى التوقف والتعليق عليه ؛ لأن النقد التاريخي لا يبنى على "لو" الفرضية لوقائع لم يقدر لها الوقوع,لكن هذا القول يكشف دون مواربة عن حقيقة مشاعرها التي كتمتها كثيرا ضد الإسلام .

ثانياً : إن القول بأن سبب نجاح الدعوة الإسلامية جاء من ارتباطها بتكوين دولة وبالغزو ,قول يجافي الحقيقة بكل المقاييس لعدة أسباب :

أ- أن الرسول (ﷺ) تمكن من تحقيق قدر كبير من النجاح لدعوته في مكة رغم اضطهاد الكفار له هناك ,بل لقد "فشا الإسلام بمكة وقريش "[1] كما يذكر لنا ابن هشام,قبل أن يأذن الله سبحانه وتعالى له بالقتال .

ب- كان الرسول (ﷺ) منذ نزول الوحي وحتى بيعة العقبة الثانية يدعو إلى الله- سبحانه -,وأُمِر بالصبر على أذى الكفار ,والصفح عن الجاهل , وعندما اشتد أذى قريش لأصحابه سَمح للمسلمين بالهجرة إلى الحبشة , ثم بالهجرة إلى المدينة .ثم بعد ذلك بالقتال .

---

(١) ابن هشام,السيرة ,ج١ ,ص٤٢٨-٤٥٤ .

ج- إذا قمنا بالنظر في السياسة التي سار عليها الرسول (ﷺ) حتى معركة بدر الكبرى نلاحظ أنها وجهت ضد قبائل قريش التجارية المتجهة إلى الشام, لضرب تجارتها والقبائل المتحالفة معها ,ردا على استيلاء قريش على أموال المهاجرين بعد هجرتهم إلى المدينة . وتدل سياسة الرسول (ﷺ) على إلمامه بأدق تفاصيل هذه القوافل التجارية لسابق معرفته بها واشتراكه فيها ؛ لذلك قام بإرسال العيون لتسقط أخبارها ,وأخذ المسلمون يعترضون القوافل ويأسرون التجار ؛منها سرية ودّان أو سرية الأبواء,وسرية عبيدة بن الحارث إلى ثنية المروة (على بعد ١٥ كم شرق بدر على خط قوافل الشام), وسرية حمزة بن عبد المطلب إلى ساحل البحر ,وسرية بواط ,وسرية العشيرة في بطن ينبع ,وسرية سعد بن أبي وقاص لوادي خَرّارَ ,وسرية عبد الله بن جحش إلى نخلة. وعندما حاولت قريش أن تسلك قافلتها الطريق إلى الشام عن طريق العراق تجنبا لاعتراض المسلمين, وأرسل الرسول (ﷺ) إليهم زيد بن حارثة الذي تمكن من إصابة عير قريش بقيادة أبي سفيان على قردة -ماء من مياه نجد . ولقد آتت هذه السياسة ثمارها ,واشتكت قريش أنها بدأت تأكل من رأس مالها ,ونتج عن مطاردة المسلمين الأخيرة

شن كفار قريش الحرب العسكرية الأولى ضد المسلمين في غزوة بدر الكبرى .

د- إن جميع المعارك التي دخلها الرسول (ﷺ) لم يحدث أن قام فيها بالغزو سواء في بدر أو أحُد أو الخندق ,بل كان مدافعا عن الدعوة الإسلامية وعن المسلمين ضد الكفار الذين عذبوهم وأخرجوهم من ديارهم واستولوا على أموالهم ,وهذه الأموال التي كانت مستحقة للمسلمين عند الكفار كانت السبب الذي دفع الرسول بأمر المسلمين إلى القيام باعتراض قوافل مكة التجارية القادمة من الشام,التي ترتب عليها نشوب معركة بدر .وفي معركة أحُد حاول كفار مكة بقيادة أبي سفيان الثأر لهزيمتهم في بدر ,والانتقام من انتصار المسلمين السابق عليهم وحاولوا غزوهم . كما أدت الرغبة نفسها في الانتقام من المسلمين إلى محاولة الكفار غزو المدينة إلى نشوب معركة الخندق ,أي أن الرسول (ﷺ) كان في المعارك الثلاثة مدافعا ضد محاولة الكفار غزو المسلمين في المدينة[1] .

ثالثاً: أما قولها :إن" الإسلام نشأ كحركة قومية .... ورد فعل

---

(١) عن السرايا راجع :ابن هشام ,السيرة,ج ٢ ,ص ٩/٦٠٨ ؛ بباوى ,نبيل لوقا,انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء,القاهرة ,الطبعة الثانية ٢٠٠٢,ص ٤٦, والكاتب مصري يدين بالمسيحية وكتاباته منصفة .

فطري للسيطرة الأجنبية.... وإذا قبلنا شهادة المصادر غير الإسلامية عن طبيعة تعاليم محمد (ﷺ), فإن هذا التفسير ينطبق عليها تماما" ؛ فهي هنا تفسر ظهور الإسلام تفسيرا سياسيا ؛ بمعنى أنه لولا الأطماع الأجنبية من قبل دولتي فارس وبيزنطة والحبشة لما قدر الظهور لعقيدة الإســـــلام . فهي هنا تنفي عن الإسلام كونه رسالة سماوية من الله – سبحانه وتعالى– لهداية البشر سواء وجدت تلك الأطماع أم لم يكن لها وجود ؟ كما فسرته تفسيرا معاصرا ؛ إضافة إلى ما تقدم : ما هي المصادر غير الإسلامية التي تدعي أنها تشير إلى أن الإسلام نشأ كحركة قومية ؟؟ إنها لا تقدم عنها أي إشارة لأنه لا وجود لها ,إنها تتلاعب بالكلمات ,وتخلط بين العصور التاريخية . إن هناك فارقا واضحا وكبيرا جدا بين أدعياء النبوة في إيران الذين أشارت إليهم ,وتلك الحركة التي ظهرت في نيوزلندة عام ١٨٦٠م , وبين الرسالات السماوية ,إذ إن جميع الحركات السابقة واللاحقة التي تناظرها سيقدر لها الفشل ﴿ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ ﴾ (الرعد: ١٧) . إن قولها إن الفتوحات العربية لم يكن ليقدر لها الوجود لولا ظهور القومية العربية فيه خلط بين أحداث القرن السابع ,وأحداث القرن العشرين,وهو أمر غير جائز ليس من ناحية البحث التاريخي فقط , بل لا يقبله المنطق أيضا ,فلم يكن هناك ثمة وجود لفكرة القومية العربية في القرن السابع,لأنها فكرة

سياسية ولدت حديثا ,ولكن الوجود الراسخ كان لقوة العقيدة الإسلامية في القلوب التي آمنت به, ومنها جاء انطلاقهم السياسي والحضاري في مختلف الميادين بعد أن تخطى الإسلام حدود القبلية دون أن يحطمها , وبعد أن تمكن الرسول (ﷺ),من وضع أساس بناء واحد تعيش في إطاره القبائل دون إحساس بالغبن أو الضيم .

رابعاً : وفوق ما تقدم تتشكك الكاتبة في فتح مكة سلما وتقول ["ليس واضحا تماماً أبدا أن مكة استسلمت سِلما ..... وهناك عدد من العدول الأوائل يؤيدون الرأي القائل بدخول مكة عنوة "][١] وتأخذ بعض أبيات الشعر التي ذكرتْ وفيها تلميح إلى ذلك دليلا لتأييد ما تدعي ,بينما أجمعت المصادر الإسلامية على استسلام مكة سلما مع إشاراتها إلى بعض الاشتباكات الفردية التي حدثت نظرا لظروف خاصة . ومن المعروف والمُسَلم به مساحة الخيال الفسيحة التي ينسج الشعر منها ,وهناك حقيقة أخرى على نفس القدر من الأهمية بالنسبة للشعر على مدار الحضارة البشرية, أن المؤرخ يستخدمه كمرآة تعكس روح العصر دون الدخول في التفصيلات التي ترد فيه للسبب الذي سبق ذكره .وإذا كانت ترى غير ذلك فيجب علينا أن نستخدم الإلياذة والأوديسا للشاعر الإغريقي هوميروسHomer بكل تفاصيلهما الخيالية لبناء التاريخ اليوناني القديم,وأينيادة الشاعر الروماني فرجيل Virgilius لبناء التاريخ

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٤٤.

الروماني في القرنين الأول قبل وبعد الميلاد.

وسيرا على نفس المنهاج تسوق كرون بعض الأشعار التي يفاخر فيها الشعراء ببطولاتهم في الحروب ,ثم تدعي أن الإسلام "رفع من شأن الحروب القبلية وضراوتها,وأضفى عليها قوة دينية عليا "(١). فهي هنا تفترض أن القبائل العربية لم تكن تغزو وتسبي قبل الإسلام , وأنها انتظرت الإسلام ليدفعها إلى ذلك ,إن القبائل العربية مثلها مثل القبائل المتحركة في أوروبا وآسيا طوال التاريخ القديم والوسيط في حركة دائمة للغزو والاستيلاء والسبي ,لأنه أسلوب حياتها تستوي في ذلك القبائل العربية قبل الإسلام وقبائل القوط والفرنجة والأنجلو سكسون والتيوتون واللومبارديون والكلت والواندال والفيكنج والجرمان قبل تدميرهم الإمبراطورية الرومانية وتمزيقها إربا عام ٤٧٦ ميلادية , واختطاف كل جماعة منهم لجزء من جسدها الذي أصابه الوهن والهشاشة من شيخوخة الزمن , وهم أجداد الشعوب الأوروبية المعاصرة ,وواصلوا القيام بالغزو والاعتداء على بعضهم ولم يتوقفوا إلا في القرن العاشر الميلادي تقريبا .يناظرهم في ذلك قبائل الهون والآفار والمغول والتتار والبلغار والأتراك في آسيا .

إن المعارك الحربية التي خاضها الرسول (ﷺ) لم يحدث أن قام

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٢٤٥.

فيها بالغزو في أي موقعة,كما سبق وأوضحنا .وبعد أن قدر الله سبحانه لرسول الله (ﷺ) فتح مكة ودخولها سلما تقاطرت وفود القبائل العربية عليه من أغلب أنحاء الجزيرة العربية,ودخلوا في الإسلام سلما . وحقيقة لقد تم فتح بلاد الشام والعراق ومصر وشمال إفريقيا ,لكن لم يُفرض على شعوبها الإسلام قهرا ,بل دخلوا فيه مختارين , ثم توالى الدخول في الإسلام وانتشر في الآفاق مع انتشار التجارة إلى الهند والصين واندونيسيا ,وهو الآن يواصل انتشاره في العالم الأمر الذي يبدو أنه يقلق كثيرين بشدة .

وخلاصة القول : إنه ينبغي على الباحث المحايد قراءة وفهم الحروب في ضوء ظروف العصر الذي وقعت أحداثها فيه,وليس كأحكام عامة تطبق على كل عصر . وهو القياس نفسه الذي يطبق على النبي إشعيا في إبادته للكفار ,أو عندما ننظر إلى وقائع العنف التي وقعت أثناء محاكم التفتيش في أسبانيا التي قادت اليهود إلى الهلاك , والتي استخدمت فيها بعض آيات الإنجيل ما ساعد على تأجيج العواطف التي أدت إلى مطاردة اليهود واضطهادهم ,هذا على الرغم من أن المسيحيين يفاخرون بأن المسيح – عليه السلام – لم يأمر أتباعه أبدا بقتل غير المؤمنين , وأمرهم بترك عقابهم لله سبحانه وتعالى يوم يقوم الحساب .وهل النبي موسى– عليه السلام –أمر شعبه بقتل سكان فلسطين وإبادتهم كما يفعل اليهود الآن مع شعب فلسطين ,وقمع وإرهاب أي رأي حر يقف في مواجهتهم كما نراه أمام أعيننا ؟

المحور السابع
الأخطاء التي وردت في الإشارات إلى الآيات القرآنية واستخدام أسلوب السخرية

وردت أخطاء ملحوظة في الإشارات إلى الآيات القرآنية الشريفة التي احتلت مساحة كبيرة من نقاشها ,على حين أن المستشرقة لم تقع في أي خطأ في نقل النصوص العربية التي تجيد لغتها إجادة مميزة, ومنها على سبيل المثال وليس الحصر : ص ١٥٢,حاشية رقم ٢٧ ؛ص١٦٣,حاشية رقم ٧٣ ؛ص ١٧١,حاشية رقم (١٦) ؛حاشية رقم(٢١) : ص١٧٧والحاشية رقم (٤٦) ؛ص٢٢٦ ؛حاشية رقم ٩٨ ؛ص ٢٢٩ أعلى الصفحة ,وقد أشرنا إليها أثناء مناقشتنا لها وقمنا بتصويبها .

استخدمت المستشرقة أسلوب السخرية والتهكم وسيلة لإقناع القارئ حيث تجاوزت الحدود ,إذ وصفت العرب "بالبرابرة"[١] والمسلمين بأنهم" وكر لصوص"[٢] "وأطلقت وصف" أقزام الصحراء "على قبيلة قريش"[٣], و أشارت إلى متجرهم في الشام بكلمة

---

(١) Crone ,Op. Cit. p.٨٢.
(٢) Crone ,Op. Cit. p.١٦٥.
(٣) Crone ,Op. Cit. p.١٤٢.

"الشتات diaspora " كما سبق ذكره[١]. ويأتي فوق كل ما تقدم الوصف الذي استخدمته في وصف توزيع الرسول (ﷺ) لبعض الغنائم بأنه سرقة أو نهب robe [٢]؛ وهي أوصاف تعبر بجلاء عن مشاعر كرون المكبوتة التي كثيرا ما أخفتها خلف ستار, وأظهرت بوضوح مدى تأثير عواطفها الشخصية في إفساد تحليلها التاريخي.

تدعي كرون فوق ما تقدم من" أن الرواية- الإسلامية – انحرفت بالكامل وأصبح هدفها إثارة النعرة العربية (Heilsgeschichte) ,وهو الانحراف الذي شكل الحقائق التي لدينا" [٣],على الرغم من أن الإسلام كما يعرف الجميع يسوي بين البشر جميعا بصرف النظر عن أي فروق أخرى توجد بينهم ,فيما عدا التسليم بالله- سبحانه وتعالى – وتقواه ؛ ويمثل ذلك أحد قواعد الإسلام الأساسية لأنه "لا فرق بين عربي وأعجمي إلا بالتقوى" ؛ وحتى هذه الحقيقة الأساسية تغافلت عنها كرون ,وقلبتها رأسا على عقب .

---

(١) عن الشتات راجع : من البحث ص١١٧ ,حاشية رقم ٨٧ .

(٢) Crone ,Op. Cit. p.٩١.

(٣) Crone ,Op. Cit. , p.٢٣٠.

الخاتمـة :

يتضح مما تقدم أن جميع ما دار من مناقشات كرون حول المحاور الأساسية السابقة قد بني على أخطاء تاريخية فادحة : من إخفاء للنصوص التي تعارض رأيها , وبتر نصوص أخرى ,وإحداث تعديل في بعض كلمات نصوص ثالثة ؛ناهيك عن استبدال معركة تاريخية مهمة ووضع أخرى مكانها وهي معركة بدر الكبرى,وتطبيق قُصاصة بردية مهلهلة عليها, في محاولة مستميتة لجرح ما أكده القرآن الكريم عن تاريخها وهو الأمر الذي قمنا بتفنيده تفصيلا ,وأثبتنا بالدليل القاطع بطلان ادعائها .وكانت قد مهدت لذلك بأن مكة المكرمة لا تقع في مكانها الحالي والموثق تاريخيا وجغرافيا , بل تقع في مكان ما شمال الجزيرة العربية بالقرب من بلقا ؛وبنت على تلك الفرضية التي قدمتها ؛الادعاء بوجود معبد كبير يقوم العرب بزيارته في شمال الجزيرة العربية . وترتب على كل ما تقدم : الادعاء بأن ظهور الإسلام كان في هذا المركز , إلى جانب نفي تجارة قريش ودورها في التجارة العالمية في ذلك الحين ؛ واستخدام مصطلحات من التاريخ الحديث والمعاصر والمطابقة بينها وبين أحداث وقعت في القرن السابع.

لقد سعت كرون منذ البداية إلى تجريح المصادر الإسلامية ,في سعي دؤوب منها للتشكيك فيها وفي ثوابت التاريخ الإسلامي كما

أشرنا ,وقد قمنا بمناقشتها وتوضيح جوانب الخطأ فيما ادعته على غير أساس من الحقيقة ؛ لذلك ينبغي على الباحث والقارئ المدقق أن يطبق عليها نفس منهجها الذي حاولت تطبيقه على المؤرخين المسلمين وهو إسقاط المعلومات المحرفة التي قدمتها ,والآراء المتعصبة ضد الإسلام , الأمر الذي ينزع عنها صفة الحياد التي يجب توافرها في البحث التاريخي السليم ,إن مثل هذه الدراسة الاستشراقية المُغرضة تعمل مع الدراسات التي تماثلها على المساهمة في تشكيل العقل الغربي وتحديد موقفه من الإسلام ,لذا يمكن القول في نهاية المطاف إن الموقف العدائي تجاه الإسلام يشارك في تكوينه دراسات مثل تلك التي قمنا بمناقشتها والرد عليها , ولكن يجب أن يؤخذ بعين الاهتمام عدم تعميم هذا الحكم على كل الدراسات الاستشراقية, لأن الاستشراق ليس كله على هذه الشاكلة .

تم بحمد الله وتوفيقه .

المصادر والمراجع :

المصادر العربية :

(١) ابـــن الأثـــير ,عـــز الـــدين أبـــي الحـــسن علـــي بـــن محمـد(ت٦٣٠/١٢٣٣م),الكامـل في التـاريخ, ,ج٢,بـيروت ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م.

(٢) الأزرقي ,أبو الوليد محمد بن عبد الله بـن أحمـد (ت ٢٢٢ هـ /٨٣٧م),أخبار مكة وما جاء فيهـا مـن الآثـار ,تحقيـق : رشدي صالح محلس ,ج١,مكة ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

(٣) البخاري,أبي عبد الله محمـد بـن إسماعيـل بـن إبـراهيم (ت ٢٥٦ هجريـــة/٨٦٩ م),صـــحيح البخـــاري,بـــيروت ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤ م.

(٤) البكـــري,أبـــو عبيـــد عبـــد الله بـــن عبـــد العزيـــز(ت ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م) , معجـم مـا اسـتعجم , ,مجلـد ١, ٢, بـيروت ١٤١٨هـ/١٩٩٨م .

(٥) الـبلاذري,أحمـد بـن يحيـى, (ت ٢٧٩ هـــ/٨٩٢ م),فتـوح البلـــدان ,تحقيـــق عبـــد الله عمـــر الطبـــاع,بـــيروت ١٤٠٧ هـ/١٩٨٧م.

(٦) ....,أنساب الأشراف ,تحقيق محمد حميد الله ,ج١, القاهرة ١٩٥٩م .

(٧) الثعالبي ,أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثعالبي النيسابوري(ت ٣٥٠/٤٢٩ هـ),ثمار القلوب في المضاف والمنسوب , تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ,القاهرة ١٣٨٤هـ/١٩٦٥م.

(٨) الجاحظ ,أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٢٥هـ/٨٦٨م),البيان والتبيين , المجلد الأول ويتضمن الجزء الأول والثاني ,القاهرة ١٩٦٨م .

(٩) ابن حبيب ,محمد (ت ٢٤٥ هـ/٨٥٩ م),المحبر , تحقيق إلزة ليشتن ستيتر,بيروت ,بدون تاريخ.

(١٠) ....,المنمق في أخبار قريش ,تحقيق خورشيد أحمد فاروق , دلهي الهند ١٣٨٤هـ/١٩٦٤م.

(١١) ابن حجر,(شهاب الدين أبو الفضل بن علي ٧٧٣/٨٥٢ هـ), الإصابة في تمييز الصحابة ؛ وبهامشه الاستيعاب في معرفة الأصحاب ,ج٢, القاهرة ١٣٢٨هـ .

(١٢) الحموي ,شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦ هـ /١٢٢٩م), معجم البلدان ,ج٤ ,٥بيروت,بدون تاريخ.

(١٣) ابن خلدون,أبو زيد ولي الدين عبدالرحمن بن

محمد (٧٣٢-٨٠٨هـ /١٤٠٥م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، اعتنى به أبو صهيب الكرمي ، عمان بدون تاريخ.

(١٤) الزوزني ، عبد الله الحسن بن أحمد (ت ٤٨٦ هـ)،تحقيق محمد الفاضلي ، صيدا – بيروت، ١٤٢٤ هجرية/٢٠٠٣ م.

(١٥) ابن سعد ،محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البصري (ت ٢٣٠هـ/٨٤٤م)، الطبقات الكبرى،تحقيق محمد عطا ،ج١ ،بيروت ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

(١٦) الأصفهاني ،أبو الفرج علي بن حسين (ت ٣٥٦ هـ/٩٦٧ م)،الأغاني ٢٤ جزء ،القاهرة ١٩٢٧-١٩٧٤م.

(١٧) الطبري ،أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ/٩٢٢ م)، تاريخ الرسل والملوك ،تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج٢ ،بيروت بدون تاريخ .

(١٨) ابن عساكر ،هبة الدين أبو القاسم علي بن الحسين(ت ٥٧١ هجرية/١١٧٥م)، تهذيب تاريخ دمشق الكبير،ترتيب عبد القادر بدران ، بيروت ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م.

(١٩) ابن كثير ، أبو الفدا عماد الدين إسماعيل(ت ٧٧٤هـ/١٣٧٢م)، البداية والنهاية ،ج٢ ،بيروت ١٤١١هـ/١٩٩٠م.

(٢٠) ابن الكلبي ،هشام بن محمد بن السائب (ت ٢٠٦هـ/٨٢١

م), الأصنام , تحقيق محمد عبد القادر أحمد ؛أحمد محمد عبيد , القاهرة ,بدون تاريخ .

(٢١) المرزوقي ,أبو علي المرزوقي الأصفهاني (ت ٤٢١هـ/١٠٣٠م), الأزمنة والأمكنة ,ج ٢,القاهرة بدون تاريخ .

(٢٢) المسعودي,أبو علي بن الحسين بن علي (ت ٣٤٦ هـ/٩٥٧-٩٥٨م) . مروج الذهب ومعادن الجوهر ,تحقيق شارل بلاّ,بيروت ١٩٦٦م , ج١,ص٢٤٢.

(٢٣) ابن منظور ,محمد بن مكرم بن علي بن أحمد الأنصاري الإفريقي المصري (ت ٧١١هـ /١٣١١-١٣١٢م),لسان العرب ,تصحيح أمين عبد الوهاب وآخرين , بيروت ١٤١٦هـ/١٩٩٦م.

(٢٤) أبو نعيم ,أحمد بن عبد الله الأصبهاني(ت ٤٣٠هـ/١٠٣٨م), دلائل النبوة ,حيدر أباد ١٩٥٠م.

(٢٥) ابن هشام,أبو محمد عبد الملك المعافري(ت ٢١٨هـ/٨٣٣ على الأكثر),السيرة النبوية ,تحقيق مصطفى السقا وعبد الحفيظ شلبي ,القسم الأول يضم الجزءين الأول والثاني, بيروت , بدون تاريخ .

(٢٦) الهمداني,الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٧٤ هـ

/٩٨٤م), صفة جزيرة العرب ,تحقيق محمد الحوالي,الرياض ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م)

(٢٧) الواقدي , محمد بن عمربن واقد (ت ٢٠٧هـ /٨٢٢ م),المغازي , تحقيق مارسنن جونس ,ج٣,بيروت ١٩٨٤م.

(٢٨) اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر(ت ٢٨٤ هجرية/٨٩٧م), تاريخ ,ج١,بيروت ١٤١٥هـ/١٩٩٥م.

المراجع العربية :

(٢٩) الأفغاني ,سعيد, أسواق العرب في الجاهلية والإسلام , القاهرة ,الطبعة الثانية ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

(٣٠) بباوي,نبيل لوقا, انتشار الإسلام بحد السيف بين الحقيقة والافتراء, القاهرة , الطبعة الثانية ٢٠٠٢م.

(٣١) الحارث , عواطف بنت الشريف شجاع بن علي بن الحسين, البيئة الحيوية لمنطقة الحرم المكي ,دراسة في الجغرافيا الحيوية, رسالة دكتوراه منشورة , الرياض ١٤٢٧هـ /٢٠٠٦م.

(٣٢) صالح ,عبد العزيز,حضارة مصر القديمة وآثارها ,ج١,القاهرة ١٩٦٢م .

(٣٣) الروبي ,آمال محمد,مصر في عصر الرومان في ضوء الوثائق التاريخية ,جدة ١٤٠٤هـ/١٩٨٧م .

(٣٤) ....,"مع باتريشيا كرون وكتابها تجارة مكة وظهور الإسلام",مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ,العدد (٤),ص ٥٤٣-٥٦٩.

(٣٥) ....,"معركة بدر الكبرى في ضوء وثيقة بردية ,مجلة جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية ,العدد (٥),ص ١٤٧-١٦٣.

(٣٦) ....,الولاية العربية الرومانية ,ترجمة كتاب بورسوك (و.ج), مراجعة بكر(محمد إبراهيم),القاهرة ٢٠٠٧م .

(٣٧) سحاب,فكتور,إيلاف قريش,رحلة الشتاء والصيف,بيروت,١٩٩٢م.

(٣٨) سلامة,عواطف أديب,قريش قبل الإسلام,الرياض ١٤١٤هـ/١٩٩٤م.

(٣٩) شاهبهاي,جيهان عبد الرحمن ,دور مكة المكرمة في الحياة الاقتصادية قبل الإسلام ,دراسة لما بين القرنين السادس والسابع الميلاديين ,رسالة ماجستير غير منشورة ,جدة , جامعة الملك عبد العزيز ,١٤٢٠هـ/٢٠٠٠م .

(٤٠) علي,عبد اللطيف أحمد,التاريخ اليوناني ,العصر الهلادي, ج١, القاهرة ١٩٧٣م.

(٤١) مهران ,محمد بيومي,دراسات في تاريخ العرب قبل الإسلام, الرياض ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م.

(٤٢) النعيم ,نورا عبد الله العلي النعيم,الوضع الاقتصادي في الجزيرة العربية في الفترة من القرن الثالث ق.م.وحتى القرن الثالث الميلادي ,رسالة ماجستير ومنشورة ,الرياض ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

المصادر الأجنبية:

(٤٣) Ammianus Marcellinus ,Rerum Gestarum Liberi,ed and tr.by j.c. Rolfe ٣ vols. London,١٩٣٥-١٩٣٩.

(٤٤) Charlesworth (M.P.) Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge,١٩٢٤,p.٢١,٦٣,٦٦.

(٤٥) Grohmann (A.) ed and tr. Arabic Papyri from Hirbet el Mird . Louvain ,١٩٦٣.

(٤٦) Jones (J.M.B.),The Choronolgy of the Magahazi ,Textual Survey , "Bulletin of the School of Oriental and African Studies ١٩ (١٩٥١) pp. ٢٤٠-٢٨٠.

(٤٧) Pliny, Natural History, ed. and tra. by A.H. Rackman and others ,١٠ vols.London,Cambridge,Mass,١٩٣٨-٦٢.

(٤٨) Ptolemy,Geography,ed.by C.F.A.Nobbe,٣vols Leipizig ١٨٨٨ -١٩١٣.

(٤٩) Yamm(A.),ed and tra.The Al-Uqla Texts Documentation Sud Arab, Washington D.C.١٩٦٣.

القواميس اليونانية واللاتينية والإنجليزية:

(٥٠) Lewis(C.T) and Short(C),A Latin Dictionary ,Oxford ١٩٦٩.

(٥١) Liddell And Scott,The Greek English Lexicon.Oxford ١٩٧٣.

(٥٢) The Oxford Classical Dictionary ,edited by Cary (M.), Nock (A.D.), and others, Oxfrod ١٩٥٧.

الفهرس :

العنـــــــــــوان	الصفحة
المقـدمـــــة	٣
المحـــور الأول : اسم مكة وموقعها الجغرافي	١٥
المحـــور الثاني : الحج في مكة قبل الإسلام	٣٣
المحـــور الثالث : دور قريش في تجارة الشرق العالمية	٦٩
المحـــور الرابع : مركز الدعوة الإسلامية	١٣٠
المحور الخامس : تاريخ معركة بدر	١٤٣
المحور السادس : تكوين الدولة الإسلامية	١٦٣
المحـور السابع : الأخطاء وأسلوب السخرية	١٨٧
الخاتمة :	١٨٩
المصادر والمراجع	١٩١
المصادر العربية	١٩١
المراجع العربية	١٩٥
المصادر الأجنبية	١٩٨
القواميس اليونانية واللاتينية والإنجليزية	١٩٩